

مكاوي سعيد
غرفة لم يدخلها رجل
مختارات قصصية
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

غرفة لم يدخلها رجل

(مختارات قصصية)

مكاوى سعيد



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سعيد، مكاوى

غرفة لم يدخلها رجل (مختارات قصصية)/ مكاوى سعيد

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٣

١٠٨ ص: ٢٤ سم.

١- القصص العربية القصيرة

(أ) العنوان ٨١٣,٠١

رقم الإيداع ٢٠١٣/٣٩٦٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-718-227-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحـ ـب ولا تعبِّر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

abalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084.
www.scc.gov.eg

إهـــداء

إليها بداخل عالمى أو خارجه
فكلها مداراتى
الآن فقط أستطيع أن أقول
إنى أحبك

مكـاوى

الفهـــرس

القسم الأول

قصص قصيرة

مسكين يا سامبو

ساعة المغربية لما تملك التعب سامبو، جرجر أقدامه متسللا من خلال حديقة المنزل، مختصرا طريق عودته، ثم نزل الدرجات الأسمنتية المتآكلة حتى ارتاحت أقدامه على أرضية البدروم الرطبة الترابية، وبحذر وقف متلصصا ومتصنتا لصوت كركرة جوزة عزت، وعندما لم يسمع صوتها، اطمأن وأمن ومر من أمام باب الغرفة بتؤدة، كان هناك ارتباط شرطي مؤلم في جمجمة سامبو بصوت الكركرة... فما دام صوت الكركرة مسموعا وصداه يلعلع ويعربد في أرجاء البدروم، فهذا ليس له إلا معنى واحد... أن عزت في حالته غير الطبيعية وأنه بمجرد أن يمر سامبو من أمام الغرفة، سيلقي عليه عزت بأي شيء في متناوله... حذاء... طفاية... حجارة الجوزة... إن شالله حتى بساطور اللحم - وقد فعلها مرة - ظن سامبو في بداية الأمر، أن عزت يلاعبه، لذلك أعاد له حذاءه كريه الرائحة وهو يهز ذيله، لكن بمجرد أن طار مبسم "لاي" الجوزة ومر بجوار أذنه مخترقا حاجز الصوت، أدرك سامبو أن عزت هذا شخص غير مأمون العواقب فقرر تجنبه وتفاديه.

اقترب سامبو من الحمام ورقد أمام بابه المفتوح، وداعبت بطنه بلولة البلاطات الأسمنتية المهترئة، وانتشى أنفه وهو يتشمم الروائح بعمق ومحبة، بينما كان ينظر بتكاسل تجاه غرفة صديقه هاشم التي بنهاية البدروم، ثم ألقى برأسه متوسدا قدميه الأماميتين وبجفون متثاقلة بدأ في تخيل ما يفعله هاشم الآن...

على الأغلب، أنه يكوي خلف البنك يتصدر شباك الغرفة ويواجه الشارع، يحدق في أرجل العابرين والعابرات مترنما بمقاطع من أغاني عبد المطلب، وهو يتحرك بمهارة بلياتشو محنك داخل الحيز الصغير في الغرفة بين السريرين، سرير الزوجية الذي

بمنتصف الغرفة إلى اليمين وترقد عليه أكوام بقج ملابس الزبائن فى انتظار الكى... وسرير الطفل الذى تجاوره الملابس التى تم كيها، هذا الممر الصغير الذى لا يتجاوز عرضه نصف المتر، والذى كان على هاشم أن يخترقه كثيرا طيلة اليوم ذهابا وإيابا وبسرعة حاملا المكواة لتغييرها من بيت النار القابع بنهاية الغرفة... وكثيرا ما كاد يتعثر فى قدم أو ركبة زوجته وهى جالسة على السرير الكبير تفلى رأس طفلها بشرود... أو تقص الملابس القديمة على هيئة أشرطة ملونة ليعيدها لها بائع السجاجيد القديمَة سجادة أو كليما... أو ووجهها ينز بالعرق أثناء إعدادها وجبة شهية من الزفر بعد مناهدة طويلة فى السوق، عادت بعدها بحصيلة لا بأس بها من أرجل وحواصل الدجاج وبضع مكعبات من شوربة "ماجى"...

وكان هاشم يسب الحياة كثيرا... وهو يتعامل مع الزبائن... أو وهو يتفادى بمعجزة كل لحظة تصطدم المكواة الملتهبة بوجه طفله أو زوجته أو أن يتعثر بها فتقع على حجره وتقضى على رجولته (شيئه الوحيد الباقى له فى هذه الحياة)... وإذا عاندته النار وكثيرا ما كانت تفعل، فكان يصعد إلى نهاية السرير الكبير قبالة خزان النار ويتجرد من ملابسه السفلية تماما ويظل يبول على موقد الكيروسين العتيق وهو يسب الموقد والدنيا بسباب فاحش، ثم يضع رأسه حانقا فوق بقجة الملابس الضخمة وهو يختلس نظرة إلى موقد الكيروسين وعندما يجده قد توهج واعتدلت ناره يبتسم ثم يرقص مترنما... السبت فات... والحد فات... وبعد بكرة يوم التلات.

أما عزت فله أكثر من حكاية... فبصفته طباخ صاحب البيت... له كلمة وهيلمان... ومن جبروته وسطوته الإتيان بأصدقائه إلى غرفته لتعاطى الحشيش فى أى وقت... صباحا أو مساء... دون خوف أو رهبة... وربما هو الذى احتك أو أحد أصدقائه – الله يعلم – بزوجة هاشم أثناء دخولها الحمام... أو قد يكون سبب ثورة هاشم عليه الغرزة التى ينصبها فى غرفته على مدار أيام الأسبوع... فكثيرا ما كانت تنشب بينهما المنازعات والتضارب بالأيدى والأرجل ثم الخصام الذى يعقبه سريعا الصلح بالقبلات والأحضان...

وأنت الذى ورطت نفسك يا سامبو بينهما، عندما اعتقدت لضيق أفقك أنك تحمى صديقك هاشم وأنت تعض عزت فى قدمه أثناء إحدى المنازعات... وكما هى العادة... تصالحا بعدها وبكيا فى أحضان بعضهما... لكن عزت لم يغفرها لك مطلقا...

أحداث مريبة تحدث هذا اليوم، وهذا اليوم بالذات من أوله لا يطمئن بخير، انتفض سامبو من رقدته وسار فى اتجاه غرفة هاشم، أربكه سكون الغرفة وكان غير منتبه للقفل الضخم الذى على بابها، ظل يحك رأسه وقدمه بالباب، فلم يفتح، استسلم ورقد متوجسا... وبين اللحظة والأخرى يتلفت منزعجا خوفا من مداعبات هاشم الثقيلة له، فكثيرا ما كان يفتح الباب متلصصا ثم يمرر المكواة الساخنة بجوار وجه سامبو الذى يفر بعيدا تطارده ضحكاتهم الصاخبة، ويعود سامبو بعدها ليدس رأسه داخل الغرفة وهو يراقب هاشم بدهشة وهو يقرب سطح المكواة الساخنة من خده وعندما يطمئن لنارها يدق بها بحماسة على القميص أو البنطلون الراقد باستسلام على البنك، وسامبو ينتبه أكثر لزوجة هاشم التى كثيرا ما تدخل وتخرج من الغرفة بالكثير من الجلبة والضجيج، حاملة أوانى تزيدها حجما على حجمها أو خضروات اصفرت من التلف ولحما لا تنهى رائحة فساده رشة بالفلفل الأسود أو دعكه بالليمون والبصل.

ما الذى بينك وبينها يا سامبو؟... ولماذا تصر على إيقاظك وأنت فى أحلى نومة بركلة فى بطنك أو بدلق دورق المياه على رأسك؟... وحتى عندما تتفضل بإعداد طبقك – غير المميز على الإطلاق – تنهرك وهى تضعه أمامك ثم تسبك وهى ترفعه...

بدأت الآن تتصاعد أصوات آتية من الخارج، والتقطتها أذنا سامبو بمهارة، فانتبه، وتردد، ثم قرر أن يخرج ليستطلع الأمر، لكن الأصوات تصاعدت أكثر واقتربت بشدة، وعلى مدى البصر بامتداد البدروم، رأى سامبو هاشم يدخل أولا وخلفه زوجته تحمل الطفل، أعد ذيله للتحية لكن سرعان ما خفضه ودسه بين إليته عندما لمح عزت خلفهما وبصحبته رجل آخر ضخم الجثة يشخط وينطر فى كل اتجاه، وتوالى دخول الرجال و "هوهو "سامبو مرتين من قبيل أداء الواجب ثم لبد أسفل المنضدة الخشبية التى على يمين غرفة هاشم وتتخذها زوجته مطبخا، ومضت عيناه تستطلع الداخلين

فى ذهول وهو يزوم بصوت مكتوم وبخوف، ويصله سباب هاشم المنفعل جدا وبكاء زوجته ودعوتها على البيت وأصحابه، والشتائم المتبادلة التى تتخللها النصائح الأبوية... وقد تعلم سامبو عدم التدخل بعد الدرس المؤلم الذى تلقاه من عزت، لذا قال لنفسه "خناقة وتعدى "وسكن فى مكانه...

لكن الأمر الآن يبدو مختلفا يا سامبو، فهاشم يخلى غرفته والرجال يحملون ما بها إلى الخارج والرجل الضخم يتسلل الجدران ويضع أكثر من قفل ضخم على بابها... ولا زلت فى ذهولك ودهشتك يا سامبو... حتى وأنت تتابع السيارة نصف النقل وهاشم يملؤها بكراكيبه وزوجته تحتضن طفلها دامعة العينين بجوار السائق، وأشخاص عديدين يودعونهم وبعضهم يرفع الأيدى بالدعاء أو يضرب الكف بالكف... كما أنك أجهدت نفسك كثيرا يا سامبو بالجرى خلف السيارة... وها أنت تعود مستسلما، تنتظر عودة هاشم، وستظل لأيام كثيرة تالية فى انتظاره، تنبح وتزوم بمرارة، وطوردت بالطبع كثيرا... من عزت ومن صاحب البيت، واتسمت المطاردات هذه المرة بالقسوة والوحشية... وحتى بت تعتقد أنك غير مرغوب بك فى هذا المكان، لذا بادلت عزت الغباء وهاجمته أكثر من مرة متجاهلا عصاه وحزامه، بل تماديت أكثر وأكثر وكدت تعض الرجل الضخم وهو يخرج من سيارته، وربما حل بك جنون وأنت تنطلق ليلا فى الشوارع الملتفة بالبيت وتطلق سيمفونيات من العواء تفتك برأس عزت وصاحب البيت وتقلق الجيران، والحال هو الحال والباب مغلق بإحكام وهاشم لم يعد، الذى عاد أكثر من مرة... رجال رسميون فى عربات مقفلة حاملين الشباك... الذى عاد أكثر من مرة رجال رسميون فى عربات مكشوفة حاملين البنادق...

وفى الصباح، حين يتجول عزت وصاحب البيت بين جثث الكلاب الكثيرة الملقاة، وهما يقلبونها بأرجلهم بتشفى، ثم تكتظ ملامحهما بتعابير الفشل والإحباط، وحينما كانا يعودان بخيبتهما، كنت لحظتها فقط تهز فى مكمنك، وظل عواؤك يا سامبو يعلو كل يوم وظلت محاولة اصطيادك فاشلة... فاشلة...

مسكين يا سامبو، لم تدرك أن حجرة صديقك هاشم، صدر حكم قضائي بإخلائه منها مؤيد في الابتدائي والاستئناف، لأنه غير النشاط من سكن إلى محل، وأنك إن ظلت تعوى إلى الأبد، لن يعود هاشم، وإن ظللت تعوى بمرارة هكذا... سيقتنصونك... سيقتنصونك... فدماغ عزت الخربة وحشيشه الفاسد يدفعانه دفعا لأن يجد في إثرك كل يوم، وصاحب البيت لبسه الجنون تماما وأقسم برأس أبيه أن يعلق رأسك على بوابة البيت كما كان يفعل أجداده في الأيام الخوالي، كما أن هناك عضوا بمجلس الشعب اقترح اقتراحا عبقريا على نواب المجلس وهو.. القبض على كل كلاب مصر المحروسة وبيعها إلى دولة كوريا الصديقة ليأكلوها هناك... مصيبة... نعم، لكن هناك مصيبة أكبر ليتك أيضا تعلمها فقد أوصى أستاذ جامعي مرموق وعينه على جائزة نوبل في مقال له بجريدة الأهرام باصطياد كل الكلاب التي تجول أرضنا الغالية وإرسالها إلى منطقة العلمين التي بها أكثر من خمسة وعشرون مليون لغما لتطهيرها من هذه الألغام وبذلك نستفيد من المساحات المهدرة التي تتجاوز ١٠٪ من مساحة أرضنا التي إلى اليوم بعيدة عن الاستغلال... فكرة عبقرية جدا... تستحق بجدارة جائزة نوبل... مسكين يا سامبو... (هتلاقيها منين بس ولا منين؟)

رؤيـــــة

كان مدى الهرب محدوداً جدا أمامى زمانيا ومكانيا، وكنت أعرف أنهم يطاليوننى بإلحاح بعد أن أيقظتنى تفجيراتهم النووية من الكهف البدائى الذى كنت قابعا به، أو أتت بهم من عالمهم البعيد إلى عالمى المتخلف... وكنت لا مباليا إن جئت إليهم أم أتوا إلىّ... كان كل الذى يهمنى هو المواجهة... المواجهة لأنها تعنى... فنائى...

وفى ظل هذا المدى المحدود كنت أفكر بأسرع من أضوائهم الكاشفة وبريق ملابسهم المعدنية ولمعة خوذات إرسالهم ووميض لعبهم النارية... وكانت بيننا لعبة أشبه بلعب القط والفأر .... وكان إعجابهم باللعبة بمثابة ميزة جيدة لى... ربما رأوا فيها نوعا من كسر الرتابة والملل فأرخوا لى الحبال هنيهة وكان يجب أن أتحصن جيدا مستغلا استمتاعهم بها.

لكن لا أمل... ليس ثمة كهوف مليئة بالصلبان والأناجيل والمصاحف والأوردة تعصمنى، ولا نتوءات مليئة بالطواطم والهياكل والتيجان والأبخرة تنجيني... وما عاد باقيا لدى شيئا أقدمه مقابل خرزهم الملون...

وها قد انتهى المدى الآن فانكشفت... وزهقوا من لعبه طفولية فحاصرونى وانتبهت... وما بين ضحكاتهم المتتالية واصطكاك أسنانهم المعدنية وبين رعبى الشديد ووميض أشعة الليزر، وحينما كانت تضيق بيننا المسافة... رحت أسألهم برجاء أن لا يضنوا بالإجابة... كيف بعد كل هذا الكم من السنين عرفتم أننى عربى؟.. وبينما كنت أتلاشى مغموراً فى الشعاع ... كانت لأسنانهم المعدنية نفس الصليل.

ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا

عند طلاقها، انتحيت بها ركنًا قصيا بالمقهى وواسيتها كصديق، ولما تدخلت للصلح متطوعا، عاتبتنى برفق وشدت على يدى وتسللت من شفتيها ابتسامة رقيقة امتزجت بكلمات قصيرة ومحددة: لا داعى... أغلقت هذه الصفحة وإليها لن أعود.

وحين أخبرتنى بعد شهور قليلة بحملها... ظننت أنى لو أخبرت طليقها بهذا الخبر ستبتسم لهما الحياة مرة أخرى. لكنها هذه المرة لامتنى بشدة - هى وأمها - وقالت وهى تطلعنى على المكتبة وصفوف أشرطة الكاسيت: هذه حياتى أنا أصنعها وأخطائى أجمل ما فيها... وانسل من الكاسيت صوت فيروز الرقيق... (إن شئت تقتلنى فأنت محكم... من ذا يطالب سيداً فى عبد؟)...

رغم ذلك سألت عنه خلسة وأرسلت إليه رسالة شفهية مع صديق مشترك.. وقابله الصديق فى المصيف.. وعاد منه بكلمتين اثنتين فقط: من هذه السيدة...؟ لم أعد أذكرها...!

شددت على العمال لكى ينتهوا من دهان منزلها... وأعدت معها ترتيب الغرف.. وكدت أتعثر فوق سطوح منزلها وأنا ألف لها إيريال التليفزيون.. وفى المستشفى الاستثمارى نالت منى الممرضة مبلغا ضخمًا من المال وهى تبلغنى الإشارة وتبتسم: ابنتك جميلة.. وظللت أيامًا أحمل غذاءها بنفسى إلى المستشفى ثم أعود إلى أمها بطعام الإفطار قبيل المدفع. ورشوت الكثيرين لكى يسمحوا لى بالسحور معهما... وقبل خروجها بيوم... لمحت ظهره مصادفة مغادراً الممر الذى بنهايته حجرتها... وتواريت كآثم فعل فعلا شائنًا... ثم اصطحبت خجلى وتوترى إليها... لكنها صوبت لى

نظرات نافذة... وقالت وأمها منشغلة عنا بإزاحة الستائر: بيننا دم ولحم، وليكن فى علمك أنه سيعود غدا ليصطحبنا بسيارته ...أرجوك لا تتصل بنا فى المساء.

ظل طبيبى النفسى يربت على ظهرى وهو يقول بصوت تتصارع فيه السخرية والشفقة: ستظل هكذا... ستظل هكذا... وأنا أغلق على نفسى باب شقتى فى المساء وجدتنى أهرول فى كل غرفها الباردة وأصرخ... ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا.

انفـــــلات

كانت بيننا حكاية لم تتم، ومحاولة فاشلة للانتحار تركت أثرًا مشوهًا على جانب خدها الأيمن، وشريطًا داكن اللون كإسفنجة ملية بالثقوب ممتداً من أعلى الذراع الأيمن حتى الأنامل، وعاراً لاحقهم حتى رحلوا ذات ليلة سوداء متسربلين بالظلام.

وكنت الفاعل، وقد أدهشنى كثيرا أنها لم تبح باسمي لأحد، رغم أنى كنت أموت منهم رعبًا كل يوم وأحيانا خجلاً من نفسى.... تماما كهذه اللحظة التى أجلس فيها أمامها وهى تقلب الأوراق لتعطى توقيع الموافقة.... وكنت متأكداً من انتقامها ومتوقعا الرفض... عاقداً العزم على اقتحام "القمسيون "غرفة... غرفة... طبيبا ...طبيبا... شاكيا منها إذا لزم الأمر حتى أحصل على الموافقة، فلن أضحى بابنتى الأخرى مقابل ماضٍ لم يعد يهم أحداً.

رفعت رأسها من فوق الورق وقالت بأسى: مرض نادر بالدم لا يصيب إلا واحداً فى المليون. قلت بحدة: أختها ماتت العام الماضى من نفس المرض... بان على وجهها الألم وتساءلت: زواج أقارب... أومأت برأسى... تحركت يدها العاجزة بصعوبة على الورق ثم قدمته لى بابتسامة لن أنساها أبدًا وهى تقول: بالسلامة ترجع بها بإذن الله ...

شكرتها ودموعى تكاد تقف حائلا بيننا، ثم تمالكت نفسى وقلت: ربنا يحمى أولادك.

غابت عيناها فى تأمل صامت وأوشكت ابتسامتها أن تزول، لكن بجهد كبير استعادتها وهى تقول: لم أتزوج ... فاتنى القطار.

خارج غرفتها كان أمامى بابان للخروج ورغم ذلك كنت عاجزا عن الانفلات.

شاطئ لم أكن أعرفه

أنا الآن داخل الفرن، وأمامى خمسة فقط ويحين دورى، ارتفعت صرخة بجوارى، ظلت تعلو بغير انقطاع، التفت.. كانت هناك سيدة ملقاة على الأرض تصرخ، وبجوارها شبكة بلاستيك، يبين من خلالها الخبز، وكان من الصعب على الخروج من الصف لمساعدتها، بعد كل هذا الوقت الذى استنفدته لأكون فى هذا الموقع.. أأخرج من صف جففت خلاياى شمسه، لمجرد أن شوكة دخلت فى قدم امرأة.. أو تعثرت عجوز فوقعت؟ محال وألف محال، ويبدو أن جميع واقفى الصف داروا معى فى مثل هذه الأفكار، فلم يتحرك منهم أحد.. فقط تحرك اثنان من خارج الصف، صاحب الفرن وعاملة خلف فاترينة.. ركعت العاملة بجوار السيدة المغمى عليها، بينما ظهر الفزع على وجه صاحب المحل، وظل يدير رأسه كالمروحة، بحثًا عن نجدة تخرجه من هذا المأزق.. طالت محاولات إفاقة هذه السيدة، وتوقف العمل بالفرن، فخرجنا من الصف محاولين تقديم بعض العون.. قال أحدنا: مسكينة حالة صرع.. رد آخر بحكمة: شوف لها حاجة تفوّقها.. بصلة.. زجاجة كولونيا. رددت عليه بهمسة ساخرة: فيه أزمة بصل الأيام دى.. أخيراً وجد صاحب الفرن ما يفعله.. قرّب من أنفها حقنة من النوشادر، فأفاقت بمجرد استنشاقه..

حاولت أن أعود إلى الصف بسرعة لكنها عادت للصراخ، ولم أتبيّن من كلماتها المطموسة فى صوت بكائها إلا بضع كلمات: الكلب الكلب. تصوّرت أن لصا سرق حافظتها.. قربت أذنى منها.. اتضحت بعض حروفها الكلب.. سرقوا منى الكلب، ستقتلنى ستى ده بألف جنيه.. (عند سماع هذه الكلمة منها، ضج كل الواقفين بالضحك والاستهزاء) ابن الحرام قال لى خليه معايا لحد ما تخدى طلبك وهرب،

بعدما أنهت هذه الكلمة، قفزت إلى عنق صاحب الفرن تود خنقه، وظل هو يحاول انتزاع يدها ويخشى فى نفس الوقت استعمال العنف معها، فالسيدة كبيرة فى السن ومازال لسانها يوجه له السباب: إنت السبب روح منك لله، تقوللى ماتدخليش الفرن بالكلب.. الكلب ده أحسن منى ومنك.. ستى حتموتنى، والله حتموتنى.. حتعمل لى إيه دلوقتى بعد ما ضاع الكلب، أنا حاموّت نفسى.. ده كلب من بلاد بره يا ناس.. بياكل بسطرمة والله العظيم يا عالم وبيشرب لبن ويفطر بفتيك..

كان صاحب الفرن شابا فى الثلاثين من عمره، من الواضح أنه لم يعتد على مثل هذه المواقف، فقد أخذته المفاجأة، ولم ينطق بكلمة إلا أن يديه ظلتا تناضلان فى سبيل انتزاع يديها من فوق عنقه.. ساعدته بكلتا يدى وأنزلت قسراً يديها من فوق عنقه، تاركًا خيطًا رفيعًا من دم ينساب على قميصه، وظللت أحاول تهدئتها، كان الصراخ المختلط بالبكاء قد أنهكها، تدلت يداها وعيناها ذاهلتان.. طلبت منها أن تشرح لى الموقف بالتفصيل.. أجهدتنى حتى عرفت أنها حاولت الوقوف بالكلب فى الصف.. اشتكى منها الواقفون.. صمم صاحب الفرن على طرد الكلب واللى عاجبه على الكحل يتكحل.. لم تُجْدِ توسلاتها مع صاحب الفرن، تمكّن اليأس منها.. دارت إلى الخلف متجهة إلى البيت لوضع الكلب بالشقة، ثم العودة للفرن.. قابلها كلب.. كلب صغير مسحوب الظهر، وقف مستسلما لتشمم كلبها الضخم شديد العدوان.. أدهشها الأمر.. يبدو أنه هذه المرة استصغر أمر الكلب الآخر أو أعجب به، لأنه لم يخشه مثل الكلاب الأخرى التى بمجرد رؤيته تهرع للاختفاء.

ابتسم الأفندى الأنيق صاحب الكلب الصغير وداعب كلبها الضخم بوقار.. كلب أصيل، نسيت تعبها وقرفها وقالت بابتسامة: ده بألف جنيه.. ضحك الأفندى بشدة.. لاحظت عدم ميله لتصديقها.. عقبت.. ستى بتقول كده، لاحظ شبكتها الفارغة.. تساءل: هو العيش خلص؟.. ردت بسرعة: لا ثم حكت حكايتها، قال لها الأفندى الذى هبط عليها من السماء، كما تصورته لحظتها: قفى بالصف وخلى كلبك معايا هنا علشان أنا برضه عايز عيش، وأكيد حيقول لى نفس.. قاطعته قائلة: هى العين تعلى على الحاجب يا سيدى، سيادتك طبعا لا يمكن حيقول لك حاجة.. همس لها وهو يسحب سلسلة

الكلب من يدها: أنا برضه مش عايز أحرجه أمام الناس.. تقفى ولا أقف أنا وتمسكى إنت الكلاب.. خبطت على صدرها بكفها معترضة وفتحت فمها على آخره وهى تقول: وده يصح يا سيدى.. وقد كان.. مر من الوقت الكثير وهى واقفة بالصف تنتظر العيش وتراقب الأفندى بنصف عين.. كان الانتظار يطحنه والشمس الحارقة تشويه ومرح الكلبين ولعبهما فى كل اتجاه يتعبه ويضنيه، وكانت تتمنى من الله أن ينتهى الأمر بسرعة رحمة بالأفندى المسكين.. أثناء اندفاع الصف مرة، غاب عن نظرها الأفندى.. برعب دارت عيناها فى كل الاتجاهات.. وجدته يشترى جريدة من الجانب الآخر.. لاحظ أنها تراقبه.. قال وهو يمسح عرقه الغزير: الجو النهارده حر جدا.. صعب عليها الأفندى جدا.. قالت له بإشفاق: هانت.. بعد فترة دخل لها الفرن، سألها: فاضل أد إيه على دورك؟ رد صاحب الفرن وهو يشيح بوجهه حتى لا يرى الكلبين: نصف ساعة.. قال له الأفندى بنرفزة: ليه؟ أجاب صاحب الفرن ببرود: العيش لسه داخل الفرن نخرجه نى.. همس الأفندى فى أذنها: حاوصل للفكهانى أجيب خمسة كيلو تفاح يكون خلص دورك.. بابتسامة ردت: اتفضل يا بيه.. ذهب الأفندى إلى الفكهانى ولم يظهر بعدها أثره أبداً على مرمى العين.

بعد أن أنهت السيدة القصة.. تعددت الآراء.. رأى البعض أنها تعرضت لعملية نصب ولابد من تدخل البوليس، وقال بعض المتفائلين.. ربما ذهب الأفندى لشراء بعض الاحتياجات وعطلته أشياء خارجة عن الإرادة ولابد من الانتظار قليلا قبل اتخاذ القرار. وعقّب صاحب الفرن: مش عاوزين لمة يا جماعة اتكلموا بره الفرن، كانت قد مرت ساعة منذ ذهاب الأفندى لشراء التفاح.. وكانت السيدة لاتزال تزرف الدمعات، وتطالبنى أنا الوحيد من بين هؤلاء الواقفين بالحل.. وكانت لاتزال تلازمنى عادة التهوّر والاندفاع بدون تفكير.. قلت بسرعة نروح للقسم ونقدم بلاغ.. ردت السيدة: لازم أروح لستى الأول أقول لها وإلا حترمينى من البلكونة.. اعترضت فى البداية على الذهاب معها، لكن نحيبها الطويل وخوفها الشديد من سيدتها أجبرانى على القبول (أضمرت فى نفسى شرحاً مستفيضاً للحالة حتى أقنع سيدتها، وكنت متوقعا أن يحوز كلامى الرضاء وبذلك يصبح كلامى هو أول تطبيق عملى لما درسته من الفلسفة طيلة هذه السنوات الطوال).

فتحت لنا الباب امرأة لا تتعدى الثلاثين من العمر.. جميلة جدا لو تخلت القسوة عن ملامحها الرقيقة.. عبرتنى نظرتها بسرعة واستقرت على وجه مرافقتى.. صرخت فيها بعنف اتأخرت ليه يا بنت؟ انكمشت بجوارى وانتحبت، أدركت المرأة ذات الثلاثين ربيعا عدم وجود الكلب، تحولت ملامحها الرقيقة لتضاريس وجه نمرة متوحشة، ثم جذبت العجوز من يدها إلى داخل الشقة.. تدافعت خلفهما.. حاولت بلا جدوى منع كف المرأة من لطم العجوز.. تجمع سكان العمارة.. خرج رجل فى الخمسين من عمره من داخل غرفة النوم وهو يتثاءب ويقول: فيه إيه؟ فيه إيه؟.. مرت عيناه على زوجته راكبة السيدة العجوز مرا سريعًا، وأظنه اعتاد هذا المنظر كثيراً لأنه قال موجها كلامه للعجوز: عملتى إيه تانى يا حيوانة؟

فاض بى الكيل.. صرخت فيهما.. حرام.. حرام عليكم.. انتبها إلىَّ.. التفتا إلىَّ جذب هتافى آذان الجيران.. التصقت بجسدى نظراتهم المتسائلة.. ارتفع صوت المرأة النمرة.. إيه اللى دخّل الغبى ده هنا؟ رددت بعنف: غبى يا وقحة.. منع الجيران التشابك.. تذكرت النمرة أنى حضرت مع العجوز.. علا صوتها مرة أخرى وهى توجه للعجوز الكلام: مين الحيوان اللى جه معاكى ده؟ هتفت العجوز وأشارت بأصابعها النحيلة المرتعشة إلىَّ: ده اللى أخد الكلب..

طوال الطريق إلى قسم الشرطة كانت المرأة النمرة لاتزال تثقب أذنى بشتائمها، بينما كان زوجها يستغل فترات الانتظار بالطريق ويترك القيادة ملتفتا إلىَّ.. راميًا علىَّ نظرات نكراء وتعبيرات احتقار.. أما السيدة العجوز، فقد كانت ملقاة بجوارى بالمقعد الخلفى تبكى ولا تجرؤ على الالتفات.. الحمد لله أنه خلقنى بهذا التكامل العضلى والقوة الجسدية، فلولاها لقتلنى الكلاب.. انتشيت عندما استرجعت تفاصيل الاشتباك.. كادوا يفتكون بى عندما سمعوا من العجوز أنى سارق الكلب، لكنى أفلت قبضة يدى اليمنى تطحن أول وجه تقابله.. كان الوجه لجار من الجيران تعيس الحظ.. ما أن وقع المسكين على الأرض حتى ارتد الآخرون إلى الخلف.. وبعدما أدركوا جيداً هيكلى الضخم خرج صوت عاقل منهم: يبدو أن سوء تفاهم قد حدث، ولابد من حل هذه

المشكلة فى قسم الشرطة.. رحبت بالأمر رغم إدراكى لأبعاد المشكلة والآثار التى قد تترتب عليها.. لم أكن خائفًا ولا متهيبًا، لذلك تركت الرجل وزوجته يسبانى ويوبخانى طوال الطريق.. كنت أعلم أن ذلك يخفف من انفعالهم ويهدئ الأمر فى النهاية، وكانت مغامرتى العضلية قد أرضت غرورى.. أرضته بالكامل.

صمم السيد بضغط من زوجته على تصعيد الأمر للنيابة.. أدرك ضابط الشرطة الشاب الموقف بذكاء.. سمع تفاصيل القصة أكثر من مرة.. ضيّق الخناق على الخادمة فاعترفت أخيراً بأنى لست السارق.. كذلك أيّد أقوالى صاحب الفرن بعد استدعائه.. لم يجد السيد مفرا من الاعتذار، بعد أن علم من الضابط أننى من الممكن أن أرفع ضده قضية سب علنى.. كان قد تشكك أكثر من مرة من حقيقة مؤهلي العلمي أمام الضابط، فعندما قلت إنى حاصل على "ليسانس الآداب قسم فلسفة".. صرخت المرأة: الحيوان ده لا يمكن يكون بيعرف يقرأ.. أما زوجها أستاذ الكيمياء العضوية بإحدى جامعاتنا كما علمت أثناء التحقيق فإنه قال: يا حضرة الضابط تأكّد من شخصية هذا النصاب، بعد اعتذار السيد وإلغاء المحضر.. همس فى أذنى الضابط: معلش دايما الأغنياء انفعاليون لكنهم طيبون.. خرجنا سويا من القسم، كانت المرأة تسير أمامى غير واعية بالموقف.. فالكلب سُرق والسارق أصبح شريفًا، والخادمة كاذبة والانتقام الذى كانت تعده فى رأسها تلاشى، بعدما أصرت الخادمة على عدم العودة للبيت، وطلبت من الضابط تسليمها إلى أقربائها.. سارت تتخبط فى خطواتها حتى باب العربة بينما تماسك الرجل وأصر أن يوصلنى للبيت اعتذاراً منه عما حدث.

فى الطريق ظللت اللهجة الودية رأسينا، كان قد عرف من التحقيق أنى لم أعيّن بعد،... عرض أن يخدمنى ويوظفنى فى شركة ما.. لاحظت نظرتها العنيفة لزوجها.. كنت أحتاج للوظيفة فعلاً.. اضطررت لضرب الحديد وهو ساخن.. أكثرت من الاعتذار لها.. أعقبت الاعتذارات بالنكات.. أسرت منها ضحكة.. اغتصبت من عينها نظرة رقيقة، وقبل وصولى للبيت كنت قد قلبت الموقف كله لصالحى.

بناء على الموعد الذى حصلت عليه منهما.. ذهبت إلى منزلهما.. سألنى الزوج بابتسامة: بتكتب آلة كاتبة؟.. رددت بسرعة: نعم تعلمتها هذا الصيف.. قالت ببشاشة:

عظيم.. عظيم.. أثناء شربى للكوكتيل.. عرفت أن الوظيفة هى أن أكتب المحاضرات والرسائل العلمية للزوج وأن أساعد الزوجة مرتين فى الأسبوع فى إعداد وكتابة مجلة الحائط التى تشرف عليها بالنادى.. لم أعترض نظرًا لجودة المرتب، وإن ألمحت إلى أن هذا ليس عملاً وأنا أشم فيه عطفًا.. قاطعتنى الزوجة بابتسامة لطيفة فقالت: إنها ستستغلنى إلى أقصى درجة وهى تنظر إلى هيكلى العضلى نظرة منبهرة حتى ظننت أنها ستستغلنى حمّالاً.. ثم استطرد الزوج بقوله إن هذا ليس إلا عملاً مؤقتًا إلى أن يقتنص لى وظيفة على درجة كبيرة من الأهمية.

مرت سنتان على هذا الحديث، ولم أزل أعمل لديهما، وحدثت اختلافات بسيطة فى العمل، فلم يعد العمل يومين فقط، بل أصبح ستة أيام فى الأسبوع، وأحيانًا أكثر من ذلك، لم أكتب على الآلة الكاتبة أكثر من عشر مرات.. كما أسند إلى الإشراف على حوض السمك الكبير وتغذيته بالديدان، والمحافظة عليه أثناء انقطاع الكهرباء عنه، وأصبحت الآن أساعد السيدة فى شراء ملابسها، واختيارها، بعدما نجح ذوقى كل مرة على حد قولها.. ونظرًا لكرمها الشديد معى لم أخذلها أبدًا.. رقصت معها، وشربت البيرة، وتذوقت السيجار، وهى سعيدة جدا بوجودى.. هناك أيضًا خبر سعيد: أنجبت فى السنة الأخيرة طفلة جميلة.. يُلمّح الخبثاء إلى أنها تشبهنى، ويُصر الزوج على أننى فأل حسن، وأن وجهى حلو عليهما، لأنها ظلت فترة طويلة بدون إنجاب.

لا أدرى لم تذكرت كل هذا الآن.. ربما جلوسها بجوارى بهذا الاسترخاء العجيب، أعاد إلى ذاكرتى ذكرى اللقاء، أو قد تكون مداعبتها المستمرة لشعرى، أيقظت الذاكرة.. أنا الآن سعيد جدا فهى بهذا الشورت الساخن أجمل من الجمال، ويزيد فى غرورى أيضًا، أننى عندما طلبت منها ألا ترتدى هذا الشورت أمام زوجها، لم يعد يراه أبدًا حتى ولا فى ماكينة الغسيل.. قد تسألنى أين هو الآن؟ فى الإسكندرية يتابع الامتحانات، نسيت الفلسفة الآن، لكن رأسى امتلأ بالمعلومات.. تصوّر إنها أضافت الآن.. معلومة جديدة إلى رأسى، أشارت بيدها الرقيقة إلى عنق المطربة التى تغنى فى التليفزيون وقالت: عارف يا أحمد ثمن العقد ده أد إيه؟ دققت النظر إلى عنق المطربة،

وقلت بمعرفة: ألف جنيه.. أفلتت منها ضحكة طويلة، ثم خرقت أذنى بالجواب.. مائة ألف جنيه.. استطردت دى الدلاية بتاعته بس مكونة من ست قطع من الماس الأصلى.. ونظرًا لأنى أعرف هيامها بالمجوهرات، ومتابعتها الدقيقة لسعرها، وأماكن بيعها، صدقت هذا الكلام، لكن الغريب أننى عندما نقلت لأمى هذه الكلمات، فى يوم آخر، وكانت تلك المطربة تغنى عندنا نفس الأغنية بغير ألوان.. التفتت أمى إلىَّ التفاتة كاملة، وقالت: بطّل جنان يابنى إنت ليه دلوقتى كل كلامك فلوس.. فلوس.. فلوس؟. ولما أقسمت لها بكل الأديان أن كلامى صحيح، اتسعت عيناها ولم يبد عليها التصديق، وأمام إصرارى الطويل على إكمال هذا الموضوع لدهشتى الشديدة أقفلت أمى التلفزيون.

وداع

فتحت الباب على مصراعيه، مدت إليه يدها بحقيبة كبيرة مستعملة ومفتوحة، تكاد أن تقفز منها بيجاما حريرية زرقاء لولا الشبشب الرابض فوقها، هاجمها هواء ساخن فى صدرها واحتل مكان رطوبة المكيف، بعد أن خفت السعال، قالت وهى تحاول أن توازن بين نبرات الصوت العالية والمنخفضة.

ـ جوزى حيرجع من السفر الأسبوع الجاى.. حيقعد هنا على طول.. زهق وقرف من الغربة.. حاول تضغط على نفسك وتنسى زى أنا ما نسيت.

هم بالكلام، أوقفته نبرة أعلى:

ـ أنا ما بخفش ولا يهمنى تهديد ولا وعيد.. أعلى ما فى خيلك اركبه.. انت فاكر عشان يومين قضيتهم معايا حتذلنى.. فوق يا شاطر انت لا تقدر تصرف على ولا تقدر تفتح بيت.. قفل على الموضوع خلاص.. جواز إيه يا عمر؟!.. أنت مجنون.. أكيد مجنـون ...!

نكس رأسه أمامها ومد يداً متخاذلة إلى الحقيبة.

ـ أنا ما حبش اللى يعيط زى العيال.. امسك نفسك يا ابنى واعتبر الأيام اللى فاتت دى حلم جميل وخلص.

لازال واقفاً، مدت يدها وانتزعت سلسلة ذهبية تنتهى بنجمة زرقاء، كانت تحتضن مفرق الصدر، ألقتها فى الحقيبة بإهانة، وهى توصد الباب قالت:

ـ اعتبرها هدية لما تتزنق بعها.

دار مستقبلا السلم الحلزوني والحقيبة تتدلى من يده.. نزل الدرجات الرخامية ببطء وتكاسل.. قفزت فردة من الشبشب إلى الأرض متشابكة مع السلسلة.. حدق فيهما طويلا.. تركهما وأكمل النزول.

شكرًا يا باولو

أخيرا انتهينا من لصق الورق على آخر حائط لآخر غرفة، أنهكها التعب فجلست القرفصاء فى وسط الغرفة، ساكن ومتعب كل جزء بجسدها إلا عينيها، أثارتنى رؤيتها بهذا الهدوء الجميل والتعب اللذيذ، ولولا يداى المتسختان ورد فعلها العنيف الذى أعرفه جيدا لاحتضنتها وهى على هذه الصورة، افترشت الأرض بجوارها، مدت إلى يدها بالحقنة البلاستيكية الصغيرة، وأومأت برأسها إلى ركن صغير فى الحائط، بالكثير من الكسل، قمت، تساندت على الحائط، التفت إليها، ابتسامتها الجميلة غمرتنى، أحسست أنى أمتلك الكون ولولا أنى أخشاها وأحبها كما لم أحب إنسانًا آخر لجعلت هذه الليلة ارتباطنا الأبدى وما انتظرت شهرًا كاملاً تمر أيامه كما يمر الكابوس الوحشى بطيئًا.. بطيئـًا.

وهى تصب الماء على يدى، اختلست نظرة الى الشباك الصغير بالحمام وقالت: الوقت تأخر جدا، قاطعتها: لكننا أنجزنا كل شيء، توقفت عن الصب وجففت يدى بالفوطة وضغطت عليها بشدة وهى تقول:.. من الغد ننقل الأثاث، قلت لها وأنا أبتسم:.. وسنتأخر كما تأخرنا اليوم، ضحكت ضحكتها التى جعلتنى ألغى كل أفكار السفر والهجرة وأخطبها وأرضى بالأمر الواقع وقالت: سنتأخر أكثر من اليوم.

فى الطريق أدركت كم الوقت متأخر، الشارع مظلم وكئيب وأصوات الصبية - وهم يلعبون - خبت تماما، التصقت بى وأنفاسها الحارة تغمرنى وخوفها الغريزى يقوينى ويشعل فى جسدى أحاسيس الرجولة.. يشعرنى أنى رجلها.. أنى شيخ القبيلة وقت الخطر. وكان لابد أن أغتصب القبلة مهما غضبت وتعصبت، وبالفعل تركت يدى ومشت غاضبة خطوات، اعتذرت لها، عاتبتنى بتحذير مملوء بالدلال، رويت لها نكتة،

سرقت منها ابتسامة، رويت لها الثانية، ضحكت بصوت منخفض، رويت الثالثة، ضحكت بملء فيها وكأن كل الكون يضحك معها ثم جذبت ذراعي إليها وهي تحلفني بحبنا ألا أفعلها ثانية.

من خلف الشجرة الضخمة التي بوسط الطريق إلى اليمين خرج شبحان واقتربا منا، لم أميز ملامحهما وتخوفت قليلا، أحسست دقات قلبها المضطربة وضايقني التصاقها العنيف بي أمام الغريبين، واجهني أولهما ودار الآخر خلفنا، تسمرت بمكاني راجفًا.. سألته ماذا يريد؟.. ابتسم بتهكم: حقي.. تساءلت بفزع: أي حق؟.. أشار إليها بسخرية، انتفضت في جنون، جذبني إلى جوار الشجرة بينما أشار إليها الآخر بأن تتبعني!.

وجدت ثلاثة يحتسون البيرة أمام خرابة مسوّرة بسور حديدي وبابًا مفتوحًا على الدوام، كنت كثيرا ما أمر عليه في الصباح وأجد أمامه عربة لبيع الفول وكانت العربة مغطاة في مكانها وهم بجوارها آمنون، سألني أوسطهم ويبدو أنه الزعيم: بتعمل إيه مع البنت دي ياد؟ صرخت: أنها خطيبتي (مشيرا إلى دبلة في يدها وأخرى في يدي)، قاطعني بسخرية: أسطوانة مشروخة، أقسمت له بكل الأديان أنها خطيبتي وسنتزوج بعد شهر من الآن وممكن أن يحضروا الفرح إذا لم يكن عندهم مانع، تفرس فيها الزعيم وبعد أن أنزل كوب البيرة من فمه قال: وإيه المانع لما تتجوزها دلوقتي حالا هنا.. إيه اللي حيخليك تستنى شهر بحاله، انفجروا في ضحك هستيري لم يوقفه إلا صوت خطيبتي تسبه: اخرس يا كلب، وكأن هذه الكلمة خدشت حياء هذا الحيوان الذي لو مرت عليه عربات الدنيا كلها لن يحس.. قتلته هذه الكلمة..! قام من على كرسيه وبوحشية بدائية صفعها صفعة، أحسست أن عظامي كلها تفتتت من هولها، اختلست نظرة إليها ودمعت عيناي وتكومت هي على الأرض وصوت بكائها يمزق قلبي، انتشى الزعيم بضربها، جلس مرة أخرى ثم سألني بهدوء: أنت بتشتغل إيه؟ أجبت: مهندس.. أشار إليها.. قلت: مهندسة، أكمل الاستجواب: وكنت فين..؟

فى شقتنا نطمئن على تجهيز كل شيء قبل ميعاد الزفاف.. أفاقت خطيبتى وصرخت: ما تتكلمش مع الحيوان ده.. نظر إليها باستهزاء وقال: بتدعى الشرف وهو نازل فيكى بوس من أول الشارع، نكست خطيبتى رأسها وسكتت، كان أمامى مستنقع قذر ولابد أن أعبره.. كلمته عن معاناتى فى الشقة والتعب مع الصنايعية وميزة أن يسكن الشخص فى شارع مثل هذا له فتوة محترم يأخذ بحقه ممن يعتدى عليه وأننى أعذره فى تصرفه لأنه كان يظن أننا لا علاقة لنا ببعض، نظر إلى بمكر مصحوب باستهزاء وعبرتنى نظرته إليها.

كانت متحفزة كنمرة جريحة ستقضى على العالم كله قبل أن يلمسها أحد، انتهزت الفرصة وقالت: أمشى يا معلم، قام الذى بجانبه بتفحصنا وبحركة ماكرة وضع يده على صدرها، أوقفته صفعة وبصقة بصوت مسموع، كاد أن يشتبك معها لولا أن الزعيم صرخ فيه وهو يقول:.. دى خطيبته ياد وبكرة حتكون مراته وأنا مصدقه، شكرته على ثقته بى وجذبت يدها لأنصرف ولم أتوقف إلا وأنا أسمعه يقول:.. استنى.. التفت إليه بدهشة، قال بهدوء:.. كل عشر خطوات تلف ناحيتى وتقول شكرا يا باولو لغاية ما توصل للشارع الرئيسى.

بعد عشر خطوات التفت وقلتها وبعد عشرين خطوة أعدتها ولم أتوقف إلا داخل التاكسى، كانت لا تزال تبكى وسائق التاكسى يلتفت إلينا عند كل توقف وكنت لا أقدر على الكلام، أحس أن جسدى قد تحول إلى ينابيع من القيح والعفن وأن كابوسًا ثقيلا يجثم على الصدر وقلبى فى قبضة يد فولاذية لا ترحم.. هبطت من التاكسى بسرعة محاولا اللحاق بها، كانت قدماها قد أكلت الدرجات الرخامية القليلة واختفت داخل الشقة، أكملت الطريق إلى بيتنا على القدمين وكنت كل عشر خطوات ألتفت دون أن أنطق بكلمة.

لم أجرؤ على رؤيتها أسبوعا كاملا حتى جاءنى أخوها الأصغر يطلب منى أن أقابل والده فى المساء.. كنت متحيرًا كيف أبرر لوالدها الأمر وأجعله فى صفى؟ وكنت أخشاها كثيرًا.. أخشى عينيها السوداوين.. صمتها القدسى، انتحى بى الأب ركنًا

قصيا.. أصر أن أشرب الليمون، وبعد أن تجرعته أعطانى لفة صغيرة بها الخاتم والسوار وبضع مئات من الجنيهات قال إنها نظير الهدايا ثم أمسك بكفى وقال فى تضرع:.. كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.. صممت أن تواجهنى وأن تقول نفس الكلمات، خرج من الغرفة وجاء بها، لم أعرفها لأول وهلة.. رداء أبيض يصل إلى الأرض وغطاء للرأس يخفى الشعر وقفاز فاحم يخفى اليدين ووجه لا يظهر منه إلا العينان، تفرست فيها كثيراً ودمعتان فى عينى كادتا تفران، لم تختلج ولم تطرف لها عين. سألتها بصوت مخنوق: أهذا رأيك؟.. هزت رأسها بالإيجاب وخرجت من الغرفة.

لم يستغرق الأمر منى كثيرا لأن أقرر، بمجرد قراءة الخبر فى الجريدة جهزت نفسى، استيقظت فى الخامسة صباحا، كنت بالشارع فى الخامسة والنصف، وجدت طابوراً أمام السفارة وكان رقمى السبعين، فى التاسعة والنصف كنت أمامه، وهو يتفرس فى الأوراق ويراجع الأختام سألنى: لماذا تهاجر؟.. حاولت المترجمة تفسير سؤاله، قلت لها: لا أحتاجك أنا أجيد اللغة، وأضفت موجهًا الكلام إليه بلغته: وأحب حياتكم وطيلة عمرى كنت أحس أنى واحد منكم كما أنى أيضا لن أعود.. لن أعود، ابتسم ابتسامة عريضة وقال: خمسة عشر يوماً وتكون هناك..

غادرت المبنى مهرولاً، تعثرت فى نتوء بالرصيف، انتشلتنى يده بسرعة وتزامنت كلماته الهامسة بالصلاة على النبى مع حركة اليد الأخرى وهى تنفض عنى الأتربة، استسلمت تماما له كطفل أبكم وجد نفسه فجأة بين طقوس زار ضخم، راقبت ظهره المحدودب قليلاً، وعندما كاد يغادرنى صدى خطواته المبتعدة، أفلتت من شفتى كلمتان رغمًا عنى.. شكراً يا باولو.. شكراً يا باولو.

غرفة لم يدخلها رجل

أوصلها لبيتها، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل وليس ثمة أضواء غير ومضات سريعة لعربات تعبر الطريق وبعض نباح كلاب، ضغطت على يده بشوق وامتدت برأسها إلى حيث مكانه بالعربة وهمست بالسلام ، ثم ارتفعت بسرعة درج البيت وأبقت لديه رنين ضحكات طفولية جميلة صاحبته طويلاً فى رحلة العودة..

اقتحم عزلتها بجرأة فى مدى زمنى لم يتجاوز عشرة أيام، وصاحبها وسط دهشتهم ليلاً ومساءً فى كل مكان، سويا سارا، يداً بيد وحلمًا بحلم، بجواره كانت بحلقانها وتمائمها الذهبية الكثيرة ومشيتها المميزة وشامتها الأسمهانية.. الصوت العالى إذا ما احتدت وضجة الطفولة ساعة المرح.. لم يبال بعيونهم الناقدة وبسماتهم الساخرة.. لإحساسه بأنها أصبحت علامة فى حياته حادة ومميزة!.. لأنه مضى يتلمس أوضاعه المقلوبة منذ عرفها كما يتلمس طفلا بسعادة لعبه الكثيرة المهشمة..! لضيقه من رتابة لازمته طويلا مغتربا هناك..!

فاجأه الرنين بمجرد دخوله بيته، وأدهشه صوتها وضحكتها لاتزال تلازم سؤالها: عرفت البيت؟.. أجابها: طبعا.،. همست : أنت أول واحد يعرف بيتى.. إيه رأيك فيه؟ أجابها متخابثا: أقول رأيى إزاى وأنا مادخلتوش؟.. عادت ضحكتها: وإيه اللى منعك؟.. تنبه لتخفيه فقال مستدركًا: خفت تفهمينى غلط.،. قالت بوقار لو كنت فاهماك غلط ماكنتش سمحتلك توصلنى بعد نصف الليل.. على العموم البيت مش نضيف دلوقتى.. مكركب قوى.. مش حيعجبك. ابتلع الطعم تماما. ومدفوعًا قال: يعجبنى أى مكان فى العالم انتى فيه.. همست بصوت أقرب الى البحة: يعنى ما يضايقكش إنك تيجى دلوقتى..، قال ومازال الكلام يخرج من فمه بقوة دفع ذاتية: طبعا لا.،. عادت ضحكتها إليه.. قوية فتية.. جميلة: خلاص أجهز الويسكى عشان تعب الطريق..

وجد نفسه منجذباً فى مسار مبهم، مستسلما وعاجزا عن التمرد، ومخفقا تماما فى استخلاص النتائج، وطيلة رحلة عودته لم يسأل نفسه أية أسئلة.. فقط كان ذهنه يدفع إليه بصور متلاحقة.. عيناها الحادتان وبسمتها المميزة.. جسدها الثعبانى.. "بنطلونها الإسترتش".. عيونهم المحدقة.. حسدهم وحقدهم لعودته من الخارج بينما هم كما هم.. يا مولاى كما خلقتنى، وما زاد الطين بلة، انتشالها من بينهم ومن وسط جدارها العازل الذى احتمت به من رزالتهم وفضولهم وإحساسهم الفوقى.. ذلك الإحساس المريض المصاحب دائما لتلك الفئة من المثقفين المخفقين فى تحقيق أحلامهم، والقابعين دائما فى منتصف السكة وأقدامهم جاهزة لسحق من بأسفلهم، وعيونهم شاخصة بالحقد والمرار على كل من يعلوهم..

طريق العودة طويل وليست ثمة أضواء البتة سوى شعاع كشاف سيارته ثم حيز من الظلام الطويل، وعلامة باهتة لصندوق كهرباء، كان قد علّم به بيتها.. الآن توقف سعيداً بوصوله. أعقبه ارتقاء سريع لدرج حجرى ممسوح إلى أن اجتذبه ضوء منسل من باب شقتها الموارب، ثم إمساك بلا فكاك من يدها الحانية، وكلمات كثيرة منها تغزو أذنيه كطلقات المدافع تعبر عن استيائها وخجلها من ازدحام البهو بأثاث أغلبه فائض عن الحاجة، وأرائك مكدسة بالكتب وبساط صناعى من علب فارغة وقنينات نصف مملوءة وأبردة شاى وكئوس تسبح فى خمرها أعقاب سجائر.. ثم نسر خشبى جناحاه فوق المروحة الميقاتية فى تعامد مع بقايا جسده المعلق بالسقف، وأكثر من مصحف فى كل ركن، وسكاكين وخناجر مدسوسة فى أكثر من مكان، وأغلفة كتب ارتاحت لها عيناه وبعضها صدمه بشدة "كالقوى الخفية "و" تسخير الجان "، ثم تمثال أبنوس لبوذا وجسد ثعبان محنط ملتف عليه.

همس بها مندهشا: حنقعد فين؟.. دلفت به إلى غرفة النوم وسط ضحكة ممطوطة، وأشارت إلى مقعد عليه زجاجة ويسكى وكأسان فى مقابل السرير وقالت: يا تقعد على الكرسى وتشيل الويسكى على السرير.. يا إمّا العكس..! ثم قفزت قفزة عالية كراقصة باليه محترفة فى نهاية رقصتها وضعتها فوق السرير، فانتبه لتناسق جسدها البديع

الذى تبين تفاصيله من خلال بيجامتها الحريرية، وخرجت من رأسه تلك اللحظة كافة أسئلته التعجبية وحلت محلها جرأة غير عادية دفعته لأن يتبعها إلى السرير، ويرتشف كأسًا وهو يعيد تأمل الغرفة.. كانت أكثر نظامًا من البهو لو تغاضينا عن الملابس الملقاة أسفل السرير حتى أدناها حجمًا، وزجاجات العطور الشامبو المتناثرة أسفل التسريحة، والسكينتين اللتين تجاوران المصحف عند قمة دولاب الملابس، لفتت نظرته انتباهها فقالت: لعلمك أنا ست منظمة جدا.. ثم سرحت بنظرتها بعيدا بأسى، وأخيرا عادت تقول ضاحكة: أصل الشقة مسكونة.. وعندما لمحت شكه.. همست: والله مسكونة وفيها جن عاوز يتجوزنى.. علشان كده باخلى دايمًا السكاكين جنب المصحف.

وتناولت رشفة طويلة من كأسها واستطردت: الأودة دى لغاية امبارح كانت أودة بنات.. مافيش راجل دخلها.. أنت أول راجل يدخلها.. مش مصدقنى؟.. اقترب لاثمًا شعرها وهو يقول: مصدقك. وكان قد تيقن من أنها تدير الحديث إلى اتجاه معين، وتأكد من أن هدفهما مشترك، وأنها تنتظر لحظة البدء منه، فاحتضنها وقبلها وامتدت أصابعه بخفة يد نشال محترف تنتزع بنطلون بيجامتها.. وتركته.. وجاكت البيجامة.. وتركته، وعندما واجهه لحمها الأبيض وجسدها المجرد من الثنايا والنتوءات، اندهش، فقد كان أقرب إلى جسد فتاة فى الخامسة عشرة لم يمسسها بشر، وبكل الرغبة المختبئة فيه منذ سفره إلى بلاد حرام فيها حتى التنفس، مضت يده تجتاحها بشدة، وفى اللحظة التى يقرر فيها الطيار الهبوط بطائرته وهو آمن تماما لسلامة تقديره، فى هذه اللحظة بالذات، وجد شيئا صلبا وباردا خلف رقبته، فانتبه، والتفت بحذر نصف التفاتة وتعلقت عيناه بحد الخنجر الهندى، فانكمش فى جسدها، مسترقًا النظر إلى وجهها الذى كان مختلفًا جدا وشمعيا كالأموات، وعندما تيقن من بياض عينيها الذى ينذر بالخطر، همس يتضرع: فيه إيه؟.. صرخت به: إنت عاوز تغتصبنى يا ابن الكلب؟! تلجلج وارتعد وانسحب الدم منه تماما وتضاءل كطفل خارج لتوه من مشيمته، وظل يحايلها بكلمات دفعها إليه عقله المضطرب، وظلت تلامسه بخنجرها حتى أحس بأن رقبته بالكامل قد غطيت بالدم، ثم فجأة ضحكت ضحكة طفلة شقية فاجأت أباها

بالخضة وقالت وخنجرها مازال خلف الرقبة: إنت خايف!..، وعندما هم بالكلام كان وجهها قد انقلب مرة أخرى شبحًا أبيض هلاميا وانطلقت تصرخ به: كمل. كمل.. وتدفعه لاغتصابها ويدها الأخرى خلف الرقبة أيضا تدفعه دفعًا إلى صدرها. كان عاجزًا تماما عن الفعل وليس أمامه إلا مصيران يتهاديان كأرجوحة صغيرة: أن يمد يديه بسرعة ويخنقها مختتمًا حياته بالسجن، أو تكون هى الأسرع وتفصل الرقبة.

هنا فى الغرفة التى لم يدخلها رجل.. ولعلها كانت تقصد لم يخرج منها رجل أبدًا.. وكانت كل أعضائه قد اضمحلت واندثرت وجسدها الجميل قد تحول إلى مسخ مشوه.. ووجد نفسه يبكى.. ينهنه كالأطفال ويبكى..، وارتفع صوته بالبكاء مع إغماضة عينيه فى صدرها وعادت إليه صورهم وهم مندهشون.. يحدقون.. وجسدها الثعبانى.. والساحة الكبيرة الممتلئة والسيف إذ يشق الفضاء ثم يهبط فاصلاً الرأس عن الجسد والتهليل والجن والعفاريت مع صوتها الحاد: كمل يا ابن الكلب..، ثم صوتها الرقيق الفجائى: تحب تسمع موسيقى؟.. انزل حط الشريط..، فيقذف بنفسه بسرعة من فوق السرير ويندفع متخبطًا فى كتب ومجلات وأوان وأنتيكات، وخلفه ضحكاتها المتواصلة تسبقه إلى الباب وتطارده وهو يتعثر على الدرج ويقع ويقوم، وتظل تلازمه حتى وهو يقود السيارة عارى الصدر فى طريق ليس به ثمة أضواء.

الفـــرار الأخـــير

كل خطوة بقطرة ماء فى حجم القرش تسقط على صدرك يا صابحة وتتجمع القروش لتبرز من خلف الجلباب الأسود استدارة الصدر، وصدرك يغرى يا صابحة بالجنس، والصفيحة الملساء المملوءة بالماء تكاد تدك رأسك الجميل، والمسافة طويلة يا صابحة وتملين، والحجارة كثيرة وتصعدين وتهبطين، وتنحنين بانحناء الطريق المليء بالصبايا والرجال، الذين تتكسر نظراتهم على صدرك، وتحاصرك رغباتهم الدفينة وتذكرك بالرغبة التى دوما فى عينيه، وتسللات يديه لتحتك بيديك، وابتسامته القبيحة التى تكاد تبتلعك، ورائحة الدخان الذى يخرج من فم كالقبر، وأنت تفرين ولا فائدة... قدرك ومصيرك وتفرين ولا فائدة...

والطريق طويل يا صابحة على أمك المهدودة وإخوتك الصغار... من الزيتون إلى أقاصى الهرم مشوار طويل... ثقيل... وهى لا تجيء إلا عند النقود... علمتك الاختلاس من المصروف وتعودت على الاستيلاء على هذه النقود ثم تعود بالوجه الكئيب وأنت وحيدة فى بيت منزو... قميء ... لا أصدقاء... لا أحباب... لكن جيران... لا يتواجدون إلا ساعة المساء... لا حس ولا خبر... يقفلون الباب على شققهم وأسرارهم وأحزانهم ولا يبالون، وحتى عندما يلتقون بك فى الصعود أو النزول تخرج التحية كالإهانة بقرف وسخرية... فهل لأنهن موظفات... مدرسات وسكرتيرات يتعالين؟ أم لأنهن ما بين العمل وبيوت الحموات حيث يتركن أطفالهن يعانين! . الله وحده هو العليم .

الشقة مشتركة... أربع غرف وصالة وحمام ومطبخ صغير... غرفتان للأسطى يحيى زوجك، وغرفتان للأسطى جابر وزوجته... تعجلت أمك الزفاف ما إن لمحت الليمونتين على صدرك حتى ألقت بك إلى أحضان يحيى... "وما العيب به؟ سائق عربة

نقل ... كسيب وابن حلال ... شارى جمالك بشبابه وماله ... وطالت الخطبة وظهر الكسيب على حقيقته... لا يملك أبيض ولا أسود، أما أمك فأصرت على التخلص منك، عاندت الحقيقة التى ظهرت ووقفت مع يحيى ضدك وبررت موقفه... "شاب والشباب يحب يصرف وأنت بعد الزواج تحافظى عليه وعلى فلوسه" وصدقت أمك كلام يحيى عن ربحه اليومى وطمعت فيه أكثر وهمست فى أذنك... "تبقى تحوشى فى اليوم جنيه ولا اثنين من المصروف" وامتدت الخطبة حتى تهامس الناس وصار الهمس صراخا... وحاول يحيى البحث عن شقة وفشل ونقب عن رجل طيب لا يأخذ خلوا ولا مقدما فعاد بخفى حنين وأخيرا جعل الله له مخرجا... ارتضى صديقه جابر أن يسكنه معه فى شقته إلى أن ينتهى من بناء بيته فيتنازل ليحيى عن الشقة نهائيا... وفرح يحيى كثيرا ولم يهدأ حتى نام فى حضنك فى خلال أسبوع وتمتع بشبابك وأضاف إلى قائمة مكيفاته مكيفا جديدا. وعرفت أخيرا يا صابحة أن زوجك تباع وأن الأسطى هو جابر، وأن مسألة القيادة أمل يداعب يحيى طويلا ويتمنى أن يحققه، بعد فوات الأوان . عرفت يا صابحة أن يحيى مجرد تباع للأسطى جابر قدرك ومصيرك..

سرينة السيارات تدوّى فى أذنيك يا صابحة وتزلزلك... تذكرك بهما... زوجك يحيى وصديقه جابر المعلم الذى تشرب المهنة واستنشقها منذ أن كان صبيا فى العاشرة يبيع الجرائد وأوراق اليانصيب للسائقين بجوار مصنع الحديد والصلب إلى أن أصبح معلما يملك عربة ومالا وبيتا لم يكتمل البنيان... وقصة لقائه بيحيى سمعتيها منهما ألف مرة...

كان يحيى واقفا بعرض الشارع يشير للعربات بأن توصله إلى أقرب محطة أتوبيس وجاء القدر بجابر فى هذه اللحظة ولما كانت العربة فارغة من الحمولة... أركبه جابر معه... وتداولا الحديث أثناء الطريق... وعرف جابر سوء أحوال يحيى المالية... فالعائد إليه من المصنع قليل ومطالب الحياة كثيرة، وكان جابر فى تلك الفترة فى أشد الحاجة إلى تباع يعاونه فى ربط الحمولة ورفعها وتنظيف العربة وإحضار المأكولات... لعبت برأسه الفكرة... تردد لحظة... ثم صارح يحيى بحاجته إلى معاون... تباع...

خرجت من بين شفتى يحيى كلمتان بطيئتان أنا أشتغل خدام... فسر له جابر الأمر جيدا... "خدام إيه يا عبيط... معاون لى... وبكره أعلمك السواقة وتشوفلك عربية تركبها ونبقى زمايل"... وبدأ الكلام يدخل دماغ يحيى شيئا فشيئا واعتدل دماغه تماما عندما سمع أن الأجر سيكون ثلاثة جنيهات يوميا... بخلاف الهبات التى سيحصل عليها من العملاء... وفى نهاية الشهر وقف يحيى أمام موظف الخزينة بالمصنع وتناول راتبه وعندما أخذ الرجل إصبع إبهامه ليبصم أمام الخانة التى بها مرتبه ضغط ضغطا شديدا على الورقة وخرج من المصنع حاملا مرتبه وشهادة الميلاد ولم يعد بعدها إلى عمله أبدا...

أعجب جابر بطاعة يحيى وحسن تصرفه وتحولت العلاقة إلى زمالة وصداقة، ووفى جابر بوعده وعلمه القيادة واستخرج له الرخصة وبقى ليحيى فقط شراء العربة ويحيى لم ينسى هذا الجميل أبدا لجابر...

ما الذى جرى لعقلك يا صابحة؟... تجاوزتى الدكة الحجرية التى تستريحين عليها كل يوم ثم تواصلين المسير... الماء نفس الماء والصفيحة نفس الصفيحة والمشوار هو المشوار ولأول مرة تخطئين... اللهم اجعله خيرا... بوادر شر تحوم... ارجعى خمس خطوات واجلسى فالطريق مازال طويلا...

اعترضت أمك على كل شيء... المهر والشبكة وطول فترة الخطوبة ودلعك والبعوض الذى يملأ الحى ولم تعترض على الحشيش والبرشام والسكن المشترك وحتى عندما فاض بك الكيل وتجسم أمامك الخوف، وصرخت فى وجهها معترضة على العيش معه... هزئت بك وسخرت منك... "بتدلعى يابت... جوزك قد الدنيا والحاجات ديه كل السواقين بتتعاطاها علشان تفوق وتصحصح فى الطريق "حتى أمك تكذب على نفسها وتقول سواق... ولا تفهمك ولن تفهمك ... احتمال عندما يقتلك يحيى أو عندما تنتحرين باختيارك... أن تفهمك... احتمال؟... كل السائقين يتعاطون المكيفات يجوز... لكن هل كل السائقين يسكنون فى سكن مشترك ويتركون الذئب مع الحمل؟... لم تفهمك أمك - أم العريف - ولأن المال فى عينيها هدف فلن تفهمك...

يحيى غيور جدا... يخشى من نظرات الناس ويثق بجابر ثقة عمياء... منعك من لبس البنطلون وألبسك اللبس الأسود... غيور جدا... حتى عندما تغتح ثوبك من تحت الإبط لكثرة رفعك الصفيحة وبان خلفه قميص نومك الأحمر... نحن يحيى وأنساك كفه لحظتها أنك إنسانة... آدمية... وفى الليل وهو يصالحك... لم ينس أن يلقى إليك بسيل أوامره... غسل ونشر الملابس الداخلية داخل الغرفة... الكلام بصوت منخفض... تنفيذ أوامر نوارة زوجة جابر فيكفى أنها وافقت على أن تشاركها الشقة... ونوارة شرسة جدا وغبية... ولا تستريح من الخناق إلا لتستعد لخناقة أكبر وجابر يبادلها الغباء بالجنون... ويظلان يتضاربان حتى يسيل منها الدم وأنت ويحيى الضحية... أول من يفض النزاع وأول من يصالحهما وأول من تتلقيان الإهانة... البيت كله سبب لك الجنون... لا راحة ولا أمان... تروحين وتجيئين بالغرفة يا صابحة... فالبيت له حرمة وقميص النوم لا يتعدى باب الغرفة المقفول... محال أن تخرجى به من الصالة... فالحائط له عيون... والباب له عيون... وجابر له عيون وأيدى... ويتحرق شوقا لأكل الثمرة الناضجة وكل يوم يمر يدفعه لأكلك... وأنت لا حول لك ولا قوة حتى الدفاع عن نفسك لا تملكينه... أمك فى واد... ويحيى فى ثقته ونوارة فى خناقاتها وثوراتها... أما جابر فهو الوحيد المتيقظ لك... المنتبه لجمالك... المنتظر لوقوعك... الراصد لانهيارك...

حتى نوارة... الظل الذى كنت تحتمين به سقط أخيرا... تركت البيت لجابر وذهبت لأهلها... المسكينة كانت تنتظر كعادتها أن يجىء جابر ليصالحها... فتمانع... فيلح... فتذهب بدلال... لكن هذه المرة لم يذهب جابر وأرسل مندوبا عنه... ورقة طلاق... دهشتى طبعا... وسألتى يحيى... لماذا؟ وأجابك بقرف... "مجنونة بتعكر عليه حياته... الواحد المفروض يرجع البيت يستريح... مش يلاقى واحدة تفجر نافوخه"... الآن فقط يا يحيى أدركت أن نوارة مجنونة ...

الساعة الثانية والنصف... ما الذى جعل هذا الأبله ينظر إليك هكذا؟... قال لك الساعة لماذا هذه النظرة...؟ هل اللحظة التى أخبرك فيها بالساعة عطلته عن مواعيده؟... لا... بل لأنك جميلة... ألف لعنة على هذا الجمال الذى سيقتلك ويجعلك

طعاما للدود... انهضى وواصلى المسيرة وإذا استطعت أن تقولى لكل من ينظر إليك أنك تحملين وجها لا تملكينه فقولى...

عجيبة هذه الحياة وأعجب منها الذين يسكنونها... جابر يريدك كثيرا ومستعد لدفع كافة أمواله من أجل أن تكونى يوما أسفل حوضه... وفى سبيلك يبذل نقوده... حشيشه... جنونه... ويحيى الذى بحكم الدين والقانون والورقة التى وقعها شاهدان زوجك... لا يراك... لا يشم عبيرك... لا يلاحظ عيونك... وحتى حين تهبط عليه أسباب الرضاء ويبقى فى شوق لليالى المساء... بعد قضاء حاجته... يصرخ فى وجهك... عشائى... أين العشاء وويل لك... ألف ويل لو كانت محتويات العشاء لا تتفق مع ما تخيله وهو يضاجعك ويلقى فى رحمك بما يزيد مواجعك...

اشترى جابر عربة... ودفع فيها مبلغا كبيرا... حتى أنت يا صابحة ذهلت أن يدفع جابر كل هذا المبلغ... أما العربة القديمة تركها ليحيى يقودها لحسابه ... وقامت بينهما شبه شركة... وكل يوم واحد بطريق... أحيانا تبالغين يا صابحة فى الأمور وتضخمين الأحداث... اعترفى الآن بأن البيت كئيب جدا بعد طلاق نوارة وأن الوحدة تقتلك حينما يكون يحيى بالعمل وأن جابر بعد طلاقه لا يتواجد كثيرا بالقاهرة... عاد إلى حياته قبل الزواج... أصبح ينتقى النقلات البعيدة التى خارج القاهرة والتى كان يرفضها لأنه متزوج... فهذه النقلات الخارجية أربح كثيرا من النقل الداخلى وأصبح يتغيب بالأيام... نسى يا صابحة... لا... بل أصبح أكثر إصرارا على النيل منك... فعندما يعود يبتسم لك... يضغط على يدك... وأمام يحيى يقدم هداياه... منديلا مطرزا من المحلة... حب العزيز من السيد البدوى... حلوى ومشبك من دمياط... ويحيى سعيد بلقاء صديقه وحبيبه ويبتسم ويهمس لك فى السرير... جابر ابن حلال... ربنا يقدرنى على رد جمايله... فعلا يا يحيى... ربنا يقدرك على رد جمايله خاصة الجميل الأخير الذى يتمنى أن يقدمه لك... أن يغتصب زوجتك... يا أبله... يامن تملك عقلا أسوأ من عربة النقل القديمة التى تركبها وأسوأ كذلك من السرير الذى تنام عليه والذى كانت تنام عليه المرحومة أمك "... ذاك الذى يهتز عند أقل حركة فيسبب جنونك يا صابحة...

عندما تشكين أن جابر يتصنت عليكما... وفى الصباح تكـتين تموتين خجلا وأنت تشاهدين انفراجة أسنانه وهو يلمح يحيى يستحم عند الفجر وخبث عينيه وهى تراقبك فى الذهاب والمجىء الصباحى...

ويحيى عنيد يصر ألا يغير سرير المرحومة، ورأسه أصب من الحديد... وفى قعدات الكيف الكثيرة... يحكى لجابر الكثير... وجابر يعرف كيف يستفيد بالقليل فما بالك بالكثير... كلامه كله معان ومعان... تجعل ركبك تتخبط ورعشة خوف تتملكك، وعرق غزير يهبط عليك ولا متعة فى هذا البيت الموحش... لا راحة ولا أمل ولا حتى ترقب سراب... وبيت جابر الجديد لن ينتهى أبدا... بما أن يحيى الغيور يبتسم له فى اللقاء والوداع ويتمنى أن يرد جمايله... وبما أن زوجة يحيى تعيش فى نخاع جابر الذى يتشوق للقاء الحرام...

لا يلعب بك الأمل يا صابحة فقد قالها لك يحيى قبل ذلك وعرفتيها وتأكدتى جيدا من فتحة عينيه الواسعتين... ومن كلمات دهشة خرجت من فمه "جابر قال إنه سيتزوج قريبا وبيته الجديد أمامه الكثير "وأنهى يحيى حديثه بقرف... ولم تدفعك الجرأة أن تقولى السبب والرعب متمكن منك...

النهار... هو النهار... بشمسه الحارقة وطريقه الطويل وحمولته الثقيلة وذبابه السخيف ولأننا بالصيف... الليل عندنا متعة... أقصد للذين يمتلكونه... الليل عندهم متعة... أما عندك فهو اجتماع ثلاثة أشخاص كلهم فى واد حول جهاز سخيف ينظرون إلى شاشته المربعة، وبالساعات يتكلمون... يحيى تستهويه الأفلام الأجنبية والمسدسات الفضية ويظل يشوح بيديه عند كل طلقة صائبة فيقلب الجوزة ويبعثر الفحم المشتعل تاركا ثقوبا على ملابسه أكثر من الثقوب التى بالمصفاة التى يهشم بها الفحم... وجابر متحفز لأقل سنتيمتر يظهر من جسد أى ممثلة فى أى سن وعندما يرى هدفه تخرج عيناه جاذبة معها رأسه... وفمه ينفتح على آخره ثم يحول عينيه بكل الخبث إليك محاولا أن يقارن بين الجزء الذى ظهر من الممثلة ونفس الجزء الذى بجسدك، ويغلبك عليها رغم القماش الأسود الذى يخفيك فأنت الأقرب والأسهل والأضمن.

ثم من بين أسنانه الصفراء يلقى بتعبير أى تعبير قذر يتناسب مع جلال الموقف الذى يراه، والعجيب أن يحيى يكون فى تلك الأثناء يشد من "لاى" الجوزة وفى كل مرة يلقى جابر بكلماته اللولبية يكون يحيى فى فم الجوزة ولا ينتبه لأى كلمة يقولها جابر... أى كلمة... وكل كلام جابر موزون... موزون وحتى فى الليالى الحلوة... الحلوة جدا بعد انتصاف الليل... فى تلك اللحظة التى تتدلل فيها المرأة وتصل إلى قمة التدلل... وتلك اللحظة التى يجيب فيها الرجل أى رغبة لزوجته... أى رغبة... حتى فى تلك اللحظة كنت يا يحيى ترفض أى نقاش حول جابر وتجد المبرر لكل شىء... "لابد أن يشاهد معنا التليفزيون... لأنه وحيد هذه الأيام... لابد أن تشعلى له الفحم وتخدمى على القعدة... حتى لا يحس بأننا لا نستلطفه وهو صاحب فضل علينا"...

ثم يلعب بك يا يحيى المخدر وأنت لا تزال صبيا وجابر هو المعلم... وتسقط يا يحيى بعد خمس أو ست أنفاس ورأس جابر تهتز فقط... وتضيع يا يحيى فى دنيا غير الدنيا ويستيقظ جابر لرغبته... يهمس لك بالمباح وغير المباح ولا ينفع معه الزجر ولا النهى ولا الكلام عن الصداقة والأخوة ولا التهديد ولا الوعيد... ويظل يلقى بنكات لا يضحك لها أحد وحتى إن كانت مضحكة تبكيك يا صابحة... تبكيك...، ويندمج فى الضحك ويخبط بإحدى يديه على فخذك... على فخذك ويحيى نائم بين دخانه وأوهامه... لا توقظه الضحكة... لا توقظه... ولا يحس أبدا بلمسة فخذك... طبعا فأنت يا يحيى لا تملكه... لا تملكه... وعندما تستيقظ يا يحيى وتفوق... يلعب معك جابر نفس اللعبة وجابر قط وصابحة فأر... وأنت آخر من يعلم... جابر معلم... وتاريخ قديم بالسوق ومعرفة بكل طوبة بالطريق ويكسب أكثر منك مائة مرة... أمر واقع ومعروف وتعرفه أنت يا يحيى أكثر من الجميع... وإذا استطعت يا يحيى أن تدخل إلى البيت بقطعة فى حجم البوستة من الحشيش... دخل جابر بقطعة فى حجم الصابونة.

وأنت ككل إنسان بهذا الكون العريض تغير... مهما كنت تحب الشخص تغير من اتساع رزقه وتضخم جيبه... وجابر لماح... اقتنص من لمعة عينيك... طمعا فى أن تصبح صاحب القعدة وصاحب الحشيش فأغراك وظل يغريك... ولم ينه القعدة حتى كان قد أقنعك وأصبحت فى يده كالخاتم، أما صابحة فقد صرخت فى وجهك ولطمت

خديها عندما علمت بخبث الفكرة... وبرأسك الحديدى الذى يشبه السرير الذى تنام عليه صممت على الفكرة، ولم يتدخل جابر فقد زرع البذرة وكان يعلم أن رأسك الغبى سيحتويها وينميها ويقف بجوارها، وكذلك وبالفداحة الأمر!... سيظن أنها من بنات أفكاره... وستدفعه هذه الفكرة للمحاربة حتى فرضها وقد كان... وصراخ صابحة أقام الفكرة على قدميها وجعلها أصلب من ذى قبل وفعلت صابحة أخر ما فى جعبتها... أتت بأمها فى يوم يا للعجب لم يكن من أوائل الشهر... وأقنعتها يا يحيى وكما تعودت أن تسمع منك المبررات أقنعتها يا يحيى أن السفر بين المحافظات سيكبر العائد ويحسن المعيشة فتستطيع أن تشترى بيتا... لا... عدة بيوت تترك لها فيها السطح لتربى فوقه الدجاج والحمام والبط... واقتنعت الأم وهى بغير حاجة للاقتناع... وهوى آخر حائط تستندين عليه بأوهام يحيي عن الفلوس والبيوت والعربات التى سيشتريها والشركة الضخمة التى سيؤسسانها... يحيى وجابر...

وكنت الوحيدة التى تدركين كيف أحكم جابر عمل الكمين... اكتشف العيب الذى بنفسيتك المريضة يا يحيى وقعد يحاورك ويناورك حتى أقنعك... ولأن جابر طيب جدا وإنسان وصاحب فضل عليك يا يحيى كما ستظل تخرف إلى النهاية... لم يخلصه أن يعرض عليك الفكرة فقط وأنت تتعب فى التنفيذ... لا بل اتفق مع متعهدى النقل والعملاء فى أغلب المحافظات وأتى لك باللقمة جاهزة وما عليك إلا أن تركب العربة وتحتضن "الدركسيون "وتدوس "... ومطمئن جدا إليك جابر فأنت خامة طيبة... لن تسرقه ولن تخدعه وقد جربك فى النقل الداخلى فما اكتشف فيك خدعة ولو صغيرة... وقيادة يحيى يا صابحة بين المحافظات... أرعبتك... أرعشتك... وظللت تخافين المستقبل وما تجىء به الأيام وتتصورين وتتوهمين...

سجينة بين أربعة جدران ومستيقظة على الدوام... قلقة وعصبية ولا تطاقين، ومرت الأيام عادية جدا... إذا غاب يحيى عن البيت لأنه مسافر فى محافظة أخرى... كان جابر فى مكان آخر يقضى توصيلة... وأنت الوحيدة بين الجدران وأمك التى كنت تحضرينها إلى البيت رغم احتجاجها بالأولاد والمدرسة... أصبحت ترفض المجىء الآن وتعقب على كلامك ومخاوفك"... عفاريت إيه يابت... اعقلى يا مجنونة... أنا ست كبيرة ما أقدرش على الشحططة"... ثم اتسع الرزق فى يد يحيى وتمسك بالسفر أكثر

وأصبحت فى هامش شعوره... ورغم كل هذا تخافين... وشعور داخلى يمزقك... يقطع من قلبك فى اليوم ألف قطعة... بأن يوما سيجىء وينفرد بك فيه جابر وترتعدين...

وتمر بك أيام الحياة إما عادية جدا أو صاخبة جدا فى حالة وجودهما معا... يحيى بجوارك يرص الحشيش، وجابر أمامك يرسم خرائط لجسدك وجهاز التسجيل والتليفزيون يتنازعان، وأنت فى صمت مطبق ووحدة رهيبة، مع أفكارك تتصارعين.

هاهو يوم آخر ينقضى من عمرك يا صابحة... يحيى فى أسيوط يحمل حديدا وغير معروف متى يعود وجابر منذ ثلاث ليال فى الإسكندرية يتفق مع العملاء... وصلت للبيت أخيرا... ارتاحى الآن... ظهرك مهدود هشمته الصفيحة... تبخل يا يحيى على بخمسة جنيهات تعطيها للملاية التى تأتى بالماء للبيوت وتدفع عشرات الجنيهات فى قطعة هباب... المهم... آن أوان الاستحمام بعد مجىء الماء... لا هذا أوان النوم... التعب يحل بك يا صابحة ولا ضرر فى ساعتين نوم ويتبقى لديك الاستحمام والغسيل... "فترة نوم قصيرة "...

استيقظى الآن يا صابحة فالشمس تكاد تغيب... إلى الحمام... قومى بالاستحمام لعل الماء يزيل تعب اليوم... آه... ما هذه المصيبة؟ ... عودى الآن بسرعة يا صابحة ... اجرى ... اغلقى خلفك باب حجرة النوم وليدمرك الخوف... لم يبق بالصفيحة إلا الربع... جاء الملعون جابر فى نومتك واستحم بالباقى والآن يشخر بسعادة بغرفته... تسمعين شخيره كأنه يشخر فى أذنيك... جاء جابر ويحيى لم يجئ وقد لا يجىء اليوم... هذا ماعملت حسابه والساعة الآن السابعة والمشوار إلى الزيتون رهيب وسيترك الشكوك فى قلب أمك ولو فررت ماذا سيقول يحيى؟ وأنت تعرفين رد فعله... سيقتلك لو ارتاب فى شىء وسيقتلك لو عرف أنك لم تقومى بواجب الضيافة مع جابر فى غيابه ها.. ها.. لست وحدك اليوم يا صابحة... ستنامين هذه الليلة وجابر يؤنس الشقة ويؤنسك...

ها قد جاء اليوم وأنت تنتظرين... المجنون يدق عليك الباب... ردى على دقاته الصغيرة... ماذا سيقول الرجل... صابحة داخل الغرفة ولا ترد... سيقول ليحيى إنه كان جائعا وصابحة لبخلها لم ترد... وسيعرفك يحيى كيف تردين... ردى عليه...

اشتدت دقاته الآن... إنه جائع وأكلته المفضلة عندك... يحيى سيزعل لأنك لم تطعمى جابر . فالرجل صاحب أفضال تغرق يحيى إلى أعلى رأسه... زهق الرجل أخيرا... عاد إلى غرفته رغم أن كل ما بالغرفة ينبئ بأنك مستيقظة... صوت الراديو العالى الذى لم ينتزعك من خوفك... حركاتك داخل الغرفة... تروحين وتجيئين... وتتخبطين فى المقعدين والسرير الحديدى... اخرجى إليه... ردى عليه... ربما الرجل برىء وأنت تتوهمين... زوجك صاحبه وأدرى به... دائما يقول النساء ناقصات عقل ودين وكذلك يقول عنه إنه مؤدب وابن حلال وصاحب أفضال... إنسى ضغطاته على يديك... تسللات عينيه خلفك... كلماته التى بألف معنى... يحيى سيزعل ويثور...

لا حس لجابر الآن... هل خرج؟ معقول .. هل زعل؟... ومعدتك لا تزال تتضارب وتحدث أصواتا وقلبك تزداد دقاته وتعلو على صوت الراديو... ويدك اليمنى ترتعش فيهتز السرير واليسرى واقفة تماما... تماما... لو خرج كان الباب سيحدث صوتا وخطوة القدم على السلم كانت ستصلك لكنه مازال هنا... ينتظر فريسته... هل تعتقدين أن الكرسى الذى وضعتيه خلف الباب سيمنعه من افتراسك لو أراد؟ تحلمين بأن يكون للغرفة شباك تلقين منه بنفسك عند بدء الهجوم... آه تلقين بنفسك من الدور السادس وتموتين ويتمتع هو بحشيشه وملذاته... اقتليه قبل أن يقتلك... ياللأسف لا توجد أى آلة حادة فى غرفة النوم... اجرى إلى المطبخ واخطفى سكينا وعودى بسرعة.. لا... جابر لن يصل إلى ذلك... هو فعلا يريدك بقوة ويتمناك ويشتهيك لكنه ليس مجنونا لكى يغتصب زوجة صديقه... إنه يريدك برغبتك لا بالقوة... صحيح إنه دنىء لكن لا يصل إلى مستوى هذه الدناءة باغتصابك... ما الذى يحدث بهذه المعدة الغبية؟ تجلجل كالأجراس وتتطاحن كالرحى وكل ما بها أصبح... سائلا... سائلا يريد أن يخرج وعضلتك القابضة تتراخى... تتراخى... خمسة وعشرون عاما وتعودين طفلة تتبرزين على نفسك... يالمهزلتك... حتى جلوسك على الأرض لا يستطيع إيقاف هذه المهزلة... افتحى الباب واجرى... اجرى... اجرى... اجرى...

ها أنت داخل دورة المياة ولم يحدث شيء... أقصد حدثا... فى نصف الطريق إلى الدورة وأنت تجرين حدث... وابتلت ملابسك الداخلية واتسخت وتشوهت لكن الذى

تخافينه لم يحدث... لم يركض وراءك جابر ولم يظهر له حس ولا خبر... اغسلى ما اتسخ... ربما معدتك اللعينة تهدأ وتلين وهى تلقى ببقاياها العفنة إلى النيل... ما هذا...؟ اللعين هنا... يدق على باب الحمام ويكاد يقتلك... عاودتك آلام المعدة وإسهال ورعدة بالأسنان لا تتوقف... ما الذى فعلتيه يا مجنونة؟... قفزتى إلى الباب... دفعتيه بقوة... اصطدم برأسه... سقط على العتبة القريبة... جريت... وعدوت... أكلت الدرجات الحجرية... اصطدمت بالسور، ووقعت أكثر من ثلاث مرات، تدفق الدم من رأسك وكوع يديك وأكثر من موضع... جرى الناس خلفك... والتفت الشارع إليك... والموظّفات والمدرّسات من البلكونات التفتن إليك... أيضا ومازلت تجرين... واللحظات لا تتوقف... وما بدأ ككل شىء فى دنيانا لابد أن ينتهى...

وجلست أخيرًا أمامه... أرجعت ظهرك إلى المقعد... استرخى رأسك قليلا... تحنين إلى إغفاءة بسيطة... رغم أنك مستيقظة منذ ساعة فقط... مازالت قدمك تعدو والرجل يكلمك وقدمك تركض... وعقلك كالتوربين الضخم الذى بدأ وأمامه سنوات ليتوقف... الرجل يتكلم ولا إجابة... لولا الكف الضخم التى اقتلعت رأسك والكلمات التى زلزلت أذنك... "ردى على حضرة الظابط "ما تكلمت .!. لكن ما فائدة كلمات ليس لها معنى من رأس لا تملكينه؟ مازلت تتكلمين والظابط يتكلم وبين الحين والآخر يمسح بعينيه قميص نومك وبقع الدم فوقه ويلمح استدارة الصدر فيتضخم صوته وبالكاد تلتقط أذنك كلماته "لماذا قتلت عشيقك يا...؟"

والكلمات مازالت لا تحمل نفس المعنى ... وتتساءلين ولا يخرج الصوت من فمك وتفكرين، ثم تتذكرين أنك بلا ملابس داخلية وأن هناك إسهالا قادما فى الطريق فتبعدين الأفكار بسرعة عن ذهنك وتبتسمين للضابط وتتسع ابتسامتك فتضحكين وتقهقهين ثم يهبط عليك الصمت فجأة.

أفق غير محدود

كان قد بلغ به الوجد مداه وارتد طفلاً صغيراً يجن بالأشياء... وتلبسته عفاريت ومردة وأولياء، فتصورها فى أفاريز المحلات وأضواء السيارات وفى إشارة الشرطى بالتوقف الإجبارى وخنوع سائق الأجرة بالامتثال وثورة الأنثى المتمردة داخل (الباص) وفى أنين المحروم حين يغلبه البكاء...

وحين تقابلا كانت لا تزال تعانى من حذائها الضيق والصيف الحار، ولما انتحى بها لم تخفف المظلة الخشبية سياط الشمس المنهمرة، ولا أوقف تدفق قطرات العرق تحت الإبطين... لكن رغم ضيقها الشديد أخفت انفعالها خلف الوجه الشمعى وقال (فقط قالت)... بعدين... بعدين...

ثم افترقا كقوسين متنافرين... سريعا هو باتجاه سماء وأفق غير محدود وهى ببطء تتحسس حجارة الطريق وتغالب ألم القدمين.

النصل

وحين برك فوق ظهرى ومس بنصله البارد جلد الرقبة.. أيقنت تماما بأنى هالك... ومن خلال عفارة التراب التى ملأت وجهى ومن بين عتامة الرؤية... كان بعضهم يفرون... وآخرون مرتعبون وثمة نساء تصيح... ومع ارتفاع النصل الحاد فى مواجهتهم كان الجمع الكثيف قد بدأ يتبدد... وكنت أحس بقطرات الدم الساخن قد بدأت تنسل منى... حتى أطلت بوجهها الفاتن... وسبقها صوتها إليه... ففر من يده السكين... وانزاح من على كاهلى متكوما كقط مذعور... رغم ذلك لم أنتهز الفرصة... لبدت كامنا فى الأرض... أرقب بعين متربة وفضول كبير ركلاتها القوية لجسده... وأتتبع بلهفة طفل يطارد بالونه الكبير بصاقها عليه... ولما نفضت عنى أتربتى وتأبطتنى... وعندما ابتعدنا بعيدا كان يحيرنى سؤال... لماذا لم يوجه نصله إليها؟ وهل لا يزال يرقد فى قلبه الحنين؟... وكانت الأسئلة تكبر شيئا فشيئا...

وهى تمسد على شعرى وتعتذر... وتمنينى بليال جميلة قادمة... بينما كانت أذناى لا تزال تلتقط صوت خطواته المهرولة وهو يعدو خلفنا... وعيناى لا تزالان تدفعان إلى عقلى بصور لنصال لامعة مشرعة فى ظهرنا... وفى كل لحظة تنمو الأصوات وتتجسم الصور... لكننى كنت على يقين هذه المرة بأن النصل لن يكون فى ظهرى... كنت على يقين.

تنهــــيدة

كانت أشعة الشمس قد استطاعت أن تنفذ من زجاج مغطى باللون الأزرق، والمروحة العتيقة لاتزال تهدر بالصوت العالى. عاجزة عن تبديد موجة الحر الشديدة التى اجتاحت الغرفة، كور الموظف الورقة التى أمامه خلط بقايا الأكل وتجشأ بصوت، وبعد أن مسح فمه بظهر يده، صرخ طالبا كمية من الماء.. نظر فى الورقة الصغيرة الممتدة إليه وسحب دوسيها ضخما، مضى يقلب أوراقه. ثم من خلال زجاج العدسة السميكة حدق فى الكهل المتهالك أمامه ووقع عدة أوراق أعطاها بتكاسل إلى الكهل وهو يقول:

- ليك ميتين جنيه فى الخزنة يابا.

بصوت أقرب إلى البكاء همس الكهل:

- ميتين جنيه تمن ابنى!

بصوت مخلوط برائحة الفول والبصل واعتراض ونفاد صبر، هتف الموظف موجها الكلمات للغرفة:

- التأمين لا يغطى أخطار الحروب وكل اللى لك عندنا مجموع الأقساط المدفوعة.. المتين جنيه وابنك الشهيد وقع بالشرط ده.. تحب تشوف التوقيع.

بتنهيدة حزينة وحروف ميتة مخنوقة خرجت متناثرة من فجوات الأسنان قال الكهل:

- يعنى انتم بتغطوا خطر السلم بس.. يعنى ابنى راح من غير تمن.

هب الموظف واقفا وتأهبت عضلاته للاشتباك، ثم خرج الصوت منه عريضا متشنجا.

– فلوس إيه اللى بتتكلم عليها يا راجل.. الدولة حتعوضك وتديك معاش، إنما الوثيقة دى صريحة.. إجرى روح الخزنة واصرف الميتين جنيه.. إنتم هتبيعوا عيالكم يا عالم..

ثم أضاف بخطابية يحسده عليها الزعماء:

ده واجب قومى.. دم لازم تقدمه للوطن بدون مقابل.

ألقى الكهل بالنقود فى جيب السروال، وتساند على الحائط المقام لوقاية المبنى من القنابل.. تصاعدت إلى أنفه وعينيه رائحة التراب الممتزجة ببول الصبية، هيجت صدره وأعادته مرة أخرى إلى السعال.. وبقدر عزم قدميه ابتعد، قابله الطريق العريض بسياراته المجنونة، كست الدمعات عينيه ثم حل الصمت فجأة. ظن أن الطريق قد خلا.. ترك لقدميه العنان.

ما لا ترونه... أراه

اقتحمت "إيفون "غرفة مكتبي ولملمت بأصابعها النحيلة الأوراق المتناثرة أمامي... وأغلقت الآلة الحاسبة وأومأت إلى ساعة الحائط بابتسامة فاتنة، ثم أطفأت سيجارتي وهي تفتعل الغضب: تاني مش حتبطل دخان يا محمد؟!

نهضت مسرعا لأرتدي جاكت البدلة... وبذلت جهداً كي ألاحقها حتى وجدتها على الرصيف تتفرس في السيارات الواقفة أمام المبنى... ولمحني منادي السيارات فأشار إلي من بعيد وهو يطبق يده لأعلى كثمرة الكمثرى بما معناه أن أنتظر قليلا... سألتها: هل ستقول كلاما مفيداً هذه المرة؟ أم ستجعلني أتثاءب كعهدي أمام المحاضرين خلال الندوات... اتسعت ابتسامتها لتحتوي الكون بأكمله وهمست: تتاوب... طب جرب كده وأنا اسيب الندوة وأطبق في زمارة رقبتك.

جاء المنادي بالسيارة وهو يقودها كالبهلوان وبابها الأمامي مفتوح... أسرعنا للدخول حتى لا نعطل الطريق، قال لي المنادي وهو يعطيني المفاتيح بابتسامة لزجة وخجل مصنوع: معلش يا باشا... أصل أنا ملقيتش مكان للركنة غير ولا مواخذة جنب الكنيسة... متآخذنيش.

قدت السيارة وقد زادني ارتباك المرور توتراً... ورغم كل إزعاجات الطريق من صفافير وصياح وجلبة المواتير، كانت حركة أصابعها المتوترة على الأوراق التي بيديها أعلى صوتا منهم جميعا... اختلست نظرة جانبية إليها، كانت كبالون فرغ منه الهواء تماما وانطبق على نفسه، وكان حزام الأمان يبدو أكثر عرضا من مساحة صدرها...

وفى الندوة بدا صوتها يجاهد الخروج والكلمات تنسل من فمها مخنوقة ومكتومة وتصاعدت أصوات ملأت القاعة... الصوت.. الصوت... وبدأ صوتها يرتفع قليلا وبالكاد سمعت بضع كلمات عن الفساد البيئى وأول وثانى أكسيد الكربون وثقب الأوزون وأرضنا الجميلة ووطننا الرائع...!... ثم سمعت رجع الصدى لصوت تصفيق فاتر... وفى طريق العودة أغلقت زجاج السيارة كله أتوماتيكيا وشغلت المكيف... وظللت أختلس النظر عند كل توقف إلى النوافذ والأبواب خوفا من أن تتسلل نسمة هواء تجذبها من السيارة إلى الأفق... وجثم على صدرى شعور طاغ بأنها ما عادت تنتمى إلى هذا العالم.

القسم الثانى

حكايات من وسط البلد

نرجس

الوقت نهايات الثمانينيات، وجامعة القاهرة يكاد يسودها فصيل سياسى واحد هو اليمين الأصولى، لا نشاط طلابى يذكر ولا حفلات ولا ترفيه ولا وسائل تعبير متاحة دون قلق.. هذا هو المناخ الذى صاحب "نرجس" طيلة سنوات دراستها بجامعة القاهرة. هى مثقفة بدرجة لافتة.. محبة للمسرح جدا وتاج أمانيها أن تجول وتصول على خشبته تتقمص كلاسيكياته العظيمة.. اختطفها التنسيق وأمنيات الأهل إلى كلية الآداب بعيداً عن حلمها الأثير للالتحاق بمعهد الفنون المسرحية.

نرجس سكندرية شهمة وجميلة إلى درجة لافتة.. عيناها سوداوان مفتوحتان باتساع وشعرها ليل أسود طويل.. ضئيلة الجسم فى تماثل مع أجساد فناناتنا الجميلات.. حديثها ساحر إن تكلمت واستماعها عبقرى إن أنصتت.. لكنها أتت فى الزمن الخاطئ تماما ولولا فروق التوقيت لكانت نجمة النجوم الآن.

سكنت بدار المغتربات بالجيزة، وفى غضون بضعة أشهر قليلة كانت زعيمة البنات بلا منازع.. من يفقنها سنا ووزنًا ودرجة دراسية كن يخشين سلاطة لسانها إذا ما احتدت، وثقافتها الواسعة إذا ما جادلت.. وجرأتها الوحشية إذا ما واجهت.. إذا ما أزعجتها جلبة وصياح البنات فى كلودور المبنى.. تفتح باب حجرتها وتخرج إليهن.. تختفى بعض البنات بمجرد سماعهن صرير فتح الباب والباقيات الأكثر شجاعة يولين ظهورهن ويمضين بتكاسل تجاه غرفهن ووابل سبابها ولعناتها ينهمر داخل آذانهن لكنهن لا يجرؤن أن يلتفتن.. دائما لا يلتفتن ودائما تحسم هى الصراع.. لا تعبأ بعنف الإدارة ولا بكلام الزميلات الذى يدور من خلف ظهرها.. تقف أمام المبنى بكل جرأة تنتظر زميلها وحبيبها لتركب خلفه على دراجته النارية، والبنات يتلصصن خلف

الشرفات يتابعنها بحسد أو بسخرية أو بامتعاض.. لم تكن تسمع لنصائح من قبيل "هى ضاقت عليكى الدنيا لما تقابليه قدام الدار وكمان تركبى وراه على الموتوسيكل". لم تكن تعتقد أنها تفعل ما يشين.. الحب لا يحتاج إلى سترة، المعاصى فقط يستلزم مداراتها عن العيون.. وأنا لا أفعل معصية كان هذا هو رأيها تجاهر به الجميع.

لكن ككل شيء جميل فى دنيانا لابد أن ينتهى سريعا.. لقى حبيبها حتفه فى حادثة مريعة وانتهت قصة الحب قبل أن تنضج فعليا.. وتبدل حال نرجس لبعض الوقت.. اكتأبت وانعزلت وتوحدت مع نفسها.. لم تعد تحضر المحاضرات أو تقرأ كلاسيكيات المسرح، ولم تكن تسمح لأحد بأن يخاطبها أو يواسيها باستثناء زميلة السكن التى كانت تحبها لأنها منكسرة وغلبانة وقد تعهدت نرجس بحمايتها من الفتيات القاسيات الزميلات ومن غلاسة الصبيان الذين يرون فى فتيات الأقاليم أهدافًا مشروعة.

وذات مساء من أماسى شهر مارس العاصف والزميلة تستذكر دروسها فى صمت، وبين الحين والآخر تختلس نظرة إلى نرجس المكومة فى فراشها تتأمل سقف الغرفة.. فوجئت الزميلة بنهوض نرجس من سريرها متجهة نحو الحمام ثم العودة منه بسرعة.. سوت نرجس شعرها ووضعت بعض لمسات المكياج الخفيفة لأول مرة منذ الحادثة المفجعة، ثم تحركت باتجاه الزميلة المضطربة بشدة من هذه التحولات السريعة، جذبتها نرجس من يدها وخرجت بها من الغرفة وصعدت بها الدرجات الحجرية القليلة تجاه سطح المبنى، كانت الزميلة فى قمة الرعب وقد اعتقدت أن نرجس جنت وقد تلقى بنفسها من السطح وتريدها شاهدا على الواقعة، وكمم الخوف لسان الزميلة.. لاحظت نرجس الرعدة الشديدة بجسد زميلتها فشخطت فيها "اثبتى جبتيلى العصبى".. ثم وقفت تتأمل الشوارع السفلية والميدان العريض.. وفجأة أمرت نرجس الزميلة بأن تتطلع معها إلى الشارع.. أطاعتها الزميلة والخوف يتملكها، ولم تسترح نرجس إلا بعد أن أفرغت لعابها كله فى الهواء ولم تعبأ والريح تعيده إليها أضعافًا مضاعفة.. ثم تنهدت براحة كبيرة، ونزلت إلى الغرفة تجمع فى هدوء خطابات حبيبها وصورهما

وبعض ذكرياتهما المتناثرة فى حقيبة جلدية صغيرة دفستها فى أعماق الدولاب ثم نامت دون أن تبادل زميلتها الكلام.

كانت هذه هى ليلة فاصلة فى حياة نرجس.. عادت بعدها إلى طبيعتها الأولى ثم زادت مساحة جرأتها يوما بعد يوم، كانت تدافع باستماتة عن صحف الحائط والمنشورات السرية وحرية التعبير حتى لو كانت لا تتبنى وجهة نظرها.. وتشارك فى كل التظاهرات والمسيرات.. لا تبالى بالعنف المضاد ولا التحرشات البدنية.. تمسح وتلعق جراحها بلا ألم وكأن هذا هو الوضع الطبيعى.. وانطلقت تمثل مع أغلب فرق الجامعة وتتحرك معهم فى كل أماكن العرض المتاحة بما فيها الأماكن الملتهبة والمعبأة ضد الفن.. حتى تعرفت على مخرج مسرحى من خريجى الأكاديمية متخرج حديثا وكانت هى فى سنتها الأخيرة قبل التخرج.. أصبحت مؤمنة إيمانا كبيرا بموهبته، وكان هو لا يمل من إطلاق تصريحاته بأن نرجس ستكون من أهم ممثلات المسرح قريبا.

بعد تخرجها تضاءلت أحلامها الفنية على صخور الواقع.. لم يتحمس منتج مسرحى أو مخرج لإمكانياتها الفنية خاصة وهى تتعامل معهم بخيلاء من فرط ثقافتها وفيض ثقتها بنفسها ولأنها كانت لا تمل من فرض صديقها المخرج على المنتجين المسرحيين بدعوى أن لا أحد سيخرج إمكانياتها الفنية العالية خلافه.

أصبحت منطقة وسط البلد محطتها الأخيرة.. بدأت فى التواجد المكثف فيها هى وصديقها المخرج على مقاهيها ومنتدياتها كافة.. لم تفقد حماسها ولم يتمكن منها اليأس، كانت على قناعة بأن موهبتها ستفرض نفسها فى النهاية.. كانت تجلس بيننا فى فندق "الكوزموبوليتان" تحدثنا باستفاضة عن أحلامها وعن عشقها للمسرح وصديقها المخرج يكمل حديثها كأنه دور مسرحى اتفقا على أدائه. وتحمست فجأة ونهضت من وسطنا وأزاحت بيدها الأكواب وطفايات السجائر من فوق المنضدة ثم صعدت عليها لتمثل مشهداً من رواية "عطيل" لوليام شكسبير.. كانت مليئة بالطاقة والحيوية، تمثل وكأنها قد تلبستها إحدى الأرواح المشاغبة لفنانة عريقة متميزة.. وانتهت الليلة بانبهارنا جميعا بأدائها.

للأسف الشديد ظلت فترة طويلة لا تقبل دوراً بخلاف دور البطولة أو مخرجًا بخلاف صديقها الذى أحبته بعنف وحال اختلاف ديانتيهما على الزواج الرسمى.. لذلك وقفت "محلك سر".

بعد سلسلة طويلة من الإخفاقات والمعارك الأسرية سافرت فجأة إلى سويسرا.. تزوجها صديقها المخرج هناك وأنجب منها طفلا، ثم تركها وسافر إلى أمريكا يبحث عن فرصته هناك ولم يعد مرة أخرى.. اتصلت مرة من سويسرا بزميلتها فى غرفة المدينة الجامعية.. قالت لها بمرارة: "أنا كنت فاكرة لما طلعنا فوق سطح المبنى إن أنا باتف على الدنيا.. أتارى الدنيا هى اللى تفت عليا".. ثم انقطعت الاتصالات لسنوات.. لكن فى الأشهر القليلة الماضية اتصلت نرجس من كندا بالزميلة نفسها، وقالت إنها بصحة جيدة هى وطفلها وإنها تجاوزت محنتها، وعملت دبلومة فى تقنيات المسرح، وتستعد حاليا لعمل رسالة دكتوراه.. قالت أيضا إنها ستعود.. سنفاجئها بما حدث بوسط البلد من تغييرات وقد تفاجئنا بشخصية مختلفة الآن.

العاشق

بعد سلسلة طويلة من الإخفاقات العاطفية المتتالية، لفت هذا العاشق نظرى إلى أسلوبه الفريد فى العشق، من موقعه ببلكونة الدور الأول بأحد مبانى وسط البلد العريقة، ينظر إلى حيث تقف حبيبته بوله، ثم ينزل سلالم المبنى بهرولة، لا يتجه إليها مباشرة بل يقف ناظراً إليها من على مسافة ثم يتحرك تجاهها ببطء، وأسارير وجهه تضج بالفرحة، لا يمسها بيده بل يلف حولها أولا أكثر من مرة، لا تهمه نظرات العابرين ولا تعليقات الصبية الصغار المشاكسين ولا الباعة ولا المشترين.

ثم يبدأ فى تحسسها والكدر يعتليه لو تلمست راحة يده شيئًا لم يكن بها من قبل.. ثم يصعد مرة أخرى بعجالة كمن تذكر شيئًا نسيه، والحبيبة مازالت فى مكانها.. ويعود بعد قليل بملابس صيفية تصلح للبلاجات "تى شيرت وشورت قصير" حتى لو كنا ذروة البرد القارص.. يجذب الرياشة الطويلة من أسفل كنبتها الخلفية ويخرجها من غمدها البلاستيكى.. يضرب الرياشة فى جنبه وساقه فيتخلف عن ذلك بعض الغبار.. ثم ينظر إلى الرياشة بتحديق عكس اتجاه الشمس حتى يطمئن على نظافتها.. يمشى بالرياشة على سطحها اللامع وعلى كاوتش العجلات.. ثم يرجعها مكانها.. فى أثناء تلك الفترة يكون صبى "الجراج" قد مد له خرطوم المياه وقرب منه الدلو.. لا يجرؤ الصبى على توجيه الخرطوم نحوها أو حتى على مقربة منها فيتناثر رذاذ المياه ويبللها.. بل لا يجرؤ أصلاً على فتح المياه إلا بأوامر منه.

بعد أن ينتهى من رقدته أسفلها وهو ينظف أجزاءها المستورة عن العيون بفوطة صفراء.. يجذب الحصيرة الصغيرة التى كان يرقد فوقها، ويكومها على الرصيف.. ثم يبدأ فى رش المياه عليها برشات محسوبة، يجففها بعدها بقطعة من الصوف وهو راقد فوقها كذكر السلحفاة عندما يضاجع رفيقته ينظف كل سنتيمتر منها، إلى أن يأتى دور

الإسفنجة الصغيرة المستديرة بحجم باطن الكف.. التى يبللها برفق بالمياه لينظف أرقامها من الأمام والخلف حتى يأتيه الصبى ببقايا جريدة يلمع بها المرآة وفوانيس الأضواء مستعينا على زجاجها بعبوة بلاستيكية صغيرة مملوءة بسائل أزرق شفاف وعلى فوهتها رشاش صغير.

قطعًا نحن قد نفعل مثله أو أكثر عندما نشترى سيارة جديدة أو يكون بنا هوس للنظافة فننظفها مرة كل يوم. اللافت أنه يفعل هذا أكثر من أربع مرات فى اليوم وعلى مدى سنوات كثيرة.. والمدهش أنه يحفظ طرازها.. مميزاته وعيوبه وتاريخ صنعه والظرف التاريخى المقترن بصنع هذا الطراز، ويعرف أيضًا عدد لفات العجل وكم سارت من كيلومترات ومن صوت محركها يعرف متاعبها بالتفصيل.. والأدهى من ذلك أنه يطارد السيارات كافة من الطراز نفسه إن مرت مصادفة فى الشارع، لو كان بالبلكونة.. ينزل مسرعًا بما كان يرتديه وهو يتمنى من الله أن تعطل السائق سيارة ما سائرة بالخطأ فى الاتجاه المخالف أو يوقفه شرطى لأى سبب أو يتوقف لشراء ساندوتشات أو دخان.. وإذا أسعده الحظ ولحق به.. يخبط بمتن أنامله على الزجاج الذى جهة السائق، ثم يكلم قائدها من خلال الزجاج.. وإذا تغابى السائق ولم يرد.. يقفز إلى الأمام وبحذر يقف أمام السيارة التى يتوقف سائقها مندهشًا.. يخرج السائق مستطلعًا: ما الأمر؟ يبتسم صاحبنا فى وجهه وهو يشير إلى سيارته المركونة فى آخر الشارع بما يعنى نحن نملك الطراز نفسه فنحن أصدقاء.. ويجرى أحاديث مع السائق عن متاعبها وكيف يعاملها وينصحه بعدم بيعها ويدلل على وفائها.

وعندما تدوى النفافير من خلفهما أو يتذمر السائق فى وجهه ويركب سيارته ويمشى.. لا يعود محبطا "بل يمشى مختالاً كأنه فعل ما عليه".. ويكرر هذه الفعلة مئات المرات.. وفرحته تتوج رأسه عندما يكون الشارع هادئًا وليس هناك تكدس بالمرور.. حينها يستوقف صاحب الطراز نفسه إذا وجد منه ودا، ويصحبه إلى سيارته ليفرجه عليها شبرًا شبرًا، ثم يخرج دفتره الذى يدون فيه كل مشاكلها والحلول والإضافات الميكانيكية التى أضافها عليها بعد استشارة الشركة الأم فى ألمانيا.. وكتالوج الشركة المصنعة التى توقفت الآن عن صنع هذا الطراز، رغم أنها لم تزل تفتخر به كما يدعى.

لو كنت مهووسًا بحبيبة مثله، لم يكن ما لاقاه من جراء حبها أقل مما سألقاه.. من ضغوط الحياة اليومية المعقدة.. أو من تدخل الآخرين فى شئونه.. أو من الأولاد العابثين الذين يعرفون مدى حبه لها ويستغلون وقوفه بأعلى وبعده عنهم.. فيلقون عليها الأتربة أو يمرون بمساميرهم الحادة على صاجها.. أو من المنادين القساة الذين يستغلون عدم وجودها ويشغلون مكانها بسيارات أخرى.. أو من أمور لا نعرفها جعلته يثور جدا فى يوم من الأيام ويركلها بشدة ثم يفتح بابها الأمامى ويترك خرطوم المياه بداخلها ليغرقها تماما، ثم يفتح غطاء محركها ويغرقه أيضًا بالمياه.. وكذلك «تنك» وقودها وزيتها.. وحين تدخل المارة قاومهم بعنف وسبهم ولعنهم وصعد إلى شقته، أغلقت زوجته غرفتها عليها ولحتضنت طفليها الصغيرين وظلت تنتحب ثم ظهر بالبلكونة يلقى عليهم وعلى السيارة بالأثاث المهشم.ثم زاده عنفا ظهور زوجته من شرفة الغرفة المقابلة تستصرخ الناس للصعود.

ظلت السيارة فترة طويلة قابعة فى المكان نفسه. وقد تغيرت هيئتها كثيراً.. القاذورات ومخلفات الطير تعلوها.. وهيكلها مجرح بالآلات الحادة الصغيرة التى استخدمها الأولاد المشاغبون.. ورتعت القطط والكلاب الصغيرة والعرس أسفلها، كانت بالضبط مثل فتاة هجرها حبيبها الأول والأخير والوحيد.. فلم تغير ثوبا، ونحلت وضمرت.. وظهرت الشعيرات بكثرة فى أجزائها المكشوفة. كنت أظن أنها لن تعود إلى سابق عهدها.. حتى ولو بعد أشهر من الصيانة والغسيل والدهان.. لكنها بمجرد أن عاد.. نفضت عنها غبارها، وتركته يمر بيده عليها يزيل عنها أوساخها.ويجعل صاجها يضىء كأن أنامله سحرية... وسكنت تحت يده منتشية.. وفتحت له أبوابها وظلت قابعة أمام جسده فى خشوع.. وعاد للشارع صفاؤه وحيويته.

كلما مررت عليها ورأيتها لامعة.. قوية.. فتية.. لم يداخلنى شك فى أن الحب بين البشر والجماد ممكن وقائم.

سـيدة الممـر

دقات رتيبة تصل إلى آذاننا بالكاد ونحن منهمكون فى لعب الطاولة.. ثم تتصاعد الدقات حينما تقترب، فينتبه أحدنا ويومئ إلينا.. نزيح كراسينا التى تشغل رصيف واجهة القهوة حتى تمر، تمشى ببطء بفعل سنها وغيظا فينا.. تسبنا سبا مهذبًا من فمها الأعجمى لأننا غير حضاريين نشغل الرصيف بألعاب تضييع الوقت.. نبتسم وينزل كلامها "بردًا وسلامًا "على أكثرنا شراسة وعدوانية.. تغادرنا فنعود إلى ما كنا عليه.. سنوات كثيرة والحال لم يتغير.. لا تسير إلا فوق الرصيف ولا تنزل نهر الطريق أبدًا.. إذا شغلنا اللعب ولم ننتبه إليها، تدق على أرجل كراسينا الخشبية بعصاها بعصبية، والكلام القاسى ينهمر من فمها بلكنتها الأجنبية الجميلة مصحوبا بالبهجة مهما كان اللعب يوترنا.. دائما يعابثها صبيان المقهى، يدعون فى البدء بأنهم سيحملون عنها حقيبتها الشبكية المليئة بالخضروات المتنوعة والفواكه، ثم يمد أحدهم يده لأخذ برتقالة أو خساية.. فتحرن فى مكانها والغضب يملؤها رغم سكوتها التام حتى يخجل الصبى فيعيد إليها ما أخذه.. فى أيام روقانها تشكو للجالسين بصوت عال من غلاء الأسعار الذى يداهمها كل يوم، ويضحك الناس من لكنتها.. فتقلب شفتيها امتعاضا وتتكئ على عصاها وتمضى.

هى تسكن فى الدور الأرضى فى العمارة المواجهة للمقهى.. لها بلكونة على الشارع وأخرى على الممر. ولها عادات يومية تضبط عليها الساعة، فى الصباح الباكر تروى الزهور التى فى بلكونتها المواجهة للشارع ثم تجلس تشرب شايها وتقرأ جريدتها الاجنبية، عندما تضايقها الشمس تدخل قليلا، ثم تعود إلى بلكونة الممر.. ذلك الممر العبقرى الذى سماه نجيب سرور "العمق الإستراتيجى لمقهى ريش"، والذى كان يجلس

فيه أمل دنقل ومحمد مستجاب ويحيى الطاهر عبدالله، وكوكبة من مثقفينا الكبار.. وأثراه الشباب بغنائهم، وألحانهم، ومناقشاتهم، وصخبهم وبوستراتهم التى تملأ كل الجدران.

كانت تفضل أن تجلس بشرفتها تراقبهم ولا تزعجها أصواتهم وحدتهم.. وعندما بدأت البنات فى ارتياد المقاهى لأول مرة.. كانت تنهرهن من أعلى على الأخص لو وجدت بيد إحداهن مبسم شيشة، ثم صاحبت بعضهن وكانت تمدهن بزجاجات المياه المثلجة لو عطب كولدير المقهى.. وأحيانا تقذف إليهن بأصابع الموز وحبات البرتقال.. تبدو كأنها لا تحب الذكور إذ كانت لا ترد علينا إلا مضطرة، وأحيانا تحدجنا بنظرات استياء إذا ما تراذلنا فى هزارنا معهن.. دائما هى تهيمن على الممر من أعلى بوجهها المسن الذى جاوز ال ٧٠ من العمر وشعرها الكستنائى المجعد ونظراتها القاسية. تبدو كالحاكم بأمر سلطة سماوية.. كنا لا نخشى صاحب المقهى أو الجيران أو السكان لكننا نقدر صمتها، وسكونها، وغضبها، وبشاشتها.

فى ذلك الممر الجهنمى الواصل بين شارع طلعت حرب وشارع البستان السعيد، والمقابل للمقهى الصغير الذى كنا نجلس عليه، وأصبح علما حتى أن أصدقاءنا كتاب الأقاليم كانت رسائلهم تصل إليه ولو لم يكتب على الأظرف إلا اسم المقهى.. هذا الممر الذى طالما احتضن كاتبات ريفيات، وكتاباً هبطوا القاهرة لأول مرة، ولم يجدوا ملاذا غيره حتى الصباح، واحتضنهم ووقف معهم وساندهم إلى أن اعتلوا مناصبهم الهامة الآن.. واستقبل فرحتهم بأول أعمالهم المنشورة وواساهم فى إحباطاتهم.. هذا الممر كان بالنسبة لنا وطناً وسيدته هى تلك الأجنبية المسنة.. عندما توفى أستاذنا المستشار المفكر التقدمى وقريب النحاس باشا مصطفى عبدالعزيز.. لم نكتف بالعزاء الرسمى فى جامع عمر مكرم، وعملنا له سرادقًا بالممر حضره كل الأصدقاء.. وأخلى صاحب المقهى الممر من رواده ليقيم العزاء.

وعندما توفى الكاتب النوبى الموهوب "إبراهيم فهمى" قبيل الليلة التى سيعرض فيها فيلمه التليفزيونى الأول "فى العشق والسفر" بطولة حنان ترك ومحمود مسعود..

أقمنا له سرادقا بالمكان نفسه فى الليلة نفسها التى سيعرض فيها فيلمه الذى لم يره وكان يترقب عرضه ويحدثنا طويلا عنه.

هذا الممر الذى استقبل عائلات ملثمة تأتى إليه بعيون حذرة مترقبة، تنزوى فى أركانه فى انتظار الفريسة.. وعندما تدخل بنتهم أو قريبتهم الممر ينقضون عليها ويحملونها قسراً داخل سيارة منتظرة، ويعودون بها إلى قريتهم ولا نرى هذه الفتاة مرة أخرى.. هذا بالإضافة إلى المزاح الثقيل الذى كنا نمارسه على الكتاب القادمين من الأقاليم لأول مرة.. وكانوا يتحملونه بصبر ثم عندما يشتد ساعدهم لا يتركون ثأرهم.. صرخ فينا أحدهم عندما تثاقلنا عليه: طبعا يا ولاد الكلب ماانتوا بتروحوا تناموا على سراير وتلاقوا ملوخية سخنة مستنياكم.. أفهم حكاية السراير دى لكنى لم أفهم حكاية الملوخية.. فالملوخية الجميلة هى الملوخية البايتة وليست السخنة.

كبر الزمن أكثر بالسيدة وتثاقلت حركتها ثم أصبحت لا تنزل إلى الشارع مطلقا.. وطالت فترات وجودها بالشرفتين.. وداعبت فكرة الزواج منها أحلام البعض.. فالشقة كبيرة جدا والأسقف عالية والبيت على ناصيتين.. والزواج منها استثمار انتهازى ناجح.. لكنها لم تمكن أحداً منها.. لا تخاطب إلا البنات بطيبة الجدات ولا تأبه للأولاد مطلقا.. وكانت لها قدرة كبيرة على التأثير علينا ونحن فى أماكننا بمجرد ظهورها فى البلكونة نزيح كراسينا إلى الأمام ونترك حيزاً بالرصيف يسمح بالمرور كأنها ستعود إلى المشى وراءنا كالمعتاد، بقى لها الآن موعدها المقدس الذى تجلس فيه بالبلكونة بخلاف وجودها فى الصباح الباكر لرى النباتات.. كان الموعد هو الخامسة مساء حيث تخرج بفنجال شايها الليبتون وتضعه على سور البلكونة وتحتسيه بعمق.. شىء ما أقرب من afternon tea المعروف عند الإنجليز.. رغم أنها لم تكن إنجليزية بل إيطالية فإنها لم تتخل عن عاداتها قط.. وتغير الزمن أيضا وامتلأ الممر بالرواد المختلفين عنا.. بنات من كل الأعمار يشربن الشيشة بجرأة وتحد.. هى أيضا تغيرت ولم تعد تأبه لهن.. فقط تنظر إليهن بأسى كأنها تودع الدنيا من نفاياتها.

ماتت سيدة الممر فى ليلة شتوية كالحة ولم يعرف أحد إلا القليلون.. ولم يلفت موتها نظر أحد كأنها طيف.. وظلت الشرفتان مغلقتين والأتربة تتكوم على شيش البلكونة وأصص النباتات تحجرت نباتاتها وبدت كأنها حفائر من الزمن الغابر وجدها المستكشفون.. وفيما يبدو أن شقتها تم تأجيرها من الباطن لأحد محلات الأزياء بوسط البلد.. واشترطوا على المؤجر عدم فتح البلكونات مطلقا حتى لا يلفت أنظار أحد إلى الشقة.. الآن فى الليل يهرب بعض الضوء من داخل الشقة ويتخلل شيش البلكونات.. وإذا دققت النظر ستجد "مانيكانات" تتحرك جيئة وذهابا بشكل سرى وسريع.. لو أخذك الخيال بعيداً ستظن أن الشقة لم تؤجر وأن السيدة بعد تخلصها من أعبائها الدنيوية، عادت شابة و دبت فى قدميها الحيوية وتصطحب صديقاتها فى جولة ليلية بشقة العمر.

وأحيانا تطير طيرا داخل شقتها التى صاحبتها ٨٠ سنة، وستظن أنها افتقدت الممر كثيرا وستهم بفتح البلكونات وتفقد الناس.. لكنك ستنتظر طويلا.

آخــــر النبـــلاء

فى ركن ببار "استلا" كان يجلس وبرفقته رجلان وسيدة... وهم يتخاطبون بالكلمات والإشارات بصوت عال ويهمس أحيانًا... لكنه كان منفصلاً عنهم تماما وعيناه مسافرتان إلى المطلق... وعندما كانوا يوجهون إليه الكلام مباشرة أو يلكزونه لكى يتابع حديثهم... كان ينتفض فجأة وينظر إليهم بحيرة كأنه فوجئ بوجوده بينهم، ثم يهز رأسه بضعف ويطفو شبح ابتسامة فوق شفتيه ويتابعهم لوهلة ثم يعود إلى سيرته الأولى...

كان البار هادئًا على غير العادة تلك الليلة... ثم بدأ يصطخب بمرور باعة الفول السودانى والمناديل الورقية والصحف بين المناضد... ثم هدأ مرة أخرى برحيل الرجل والسيدة اللذين كانا برفقته، ولم يبق بصحبته غير شخص واحد... ظل هذا الرجل يهامسه بعد رحيلهما، وتظهر على وجهه انفعالات شتى بينما صاحبنا ما تزال عيناه كما هما سابحتين فى الأفق..، دقائق معدودات ومل الرجل الذى يجالسه وانصرف، وظل هو وحيداً بملامحه المميزة التى أضفى عليها الأسى قدسية، وشعره الكستنائى المجعد الذى ترسم حدوده شعيرات بيضاء يتحدى الريح المتربة الضعيفة التى تتسلل من خلال ثقوب النافذة الخشبية التى يجلس بجوارها والتى تطل على الشارع... رشف رشفتين ثم بدأت عيناه تقودانه بعجالة إلى ماض قريب، وكلما أهمله تذكره، وكلما تذكره غابت عنه بعض التفاصيل...

فى اللحظات الحرجة من عمر الرجال، عندما تتصارع التجاعيد مع فتوة الجسد ونضج التفكير... عندما تقابلك المرآة بوجهها الساخر كل صباح... فتزيد تضاريس وجهك ضراوة... وتمضى تتلمس بإصبعك تفاصيل وجهك ثم تركن إلى شباب قلبك

فتعلن لها بكل جرأة وتحد: أنا مازلت صغيراً... أنا مازلت صغيراً.. فى تلك اللحظة لن يوقفك شىء عن فعل ما تحبه.. خاصة لو كنت مثله...

وجد نفسه مدفوعًا بحبها، دائرا فى مجالها المغناطيسى، كفته العالم واكتفى بها حلمًا مستحيلاً لكنه قادر على تحقيقه... لم يحفل بحسابات الربح والخسارة... لم يعبأ بأفكار العقل والهوس والجنون... لم يستشر أحدا، ولم يستفت حتى قلبه الواقع فى أسرها تمامًا... قال لنفسه أنا أحب فلابد أن أواجه...

سار والشوق يقوده إلى المسرح الكبير الذى يلعب على خشبته أوركسترا سيمفونى كامل (لا يقل عدد عازفيه عن ٦٠ عازفًا).. وكان الذى يقود الأوركسترا أحد زملائه... وفى الصالة جمهور كبير من الطلبة والأساتذة وأقارب العازفين... جلس يرقب ما يحدث من مقاعد الجمهور بينما كان كل من فوق خشبة المسرح ينظرون إليه بلا استثناء... المحترفون منهم وطلبة الامتياز... فهو أستاذهم وعميد معهدهم والموسيقار العظيم... من فرط حماستهم ارتقى عزفهم هذه الليلة إلى الكمال...

انتهت المقطوعة الموسيقية التى يعزفونها وقبل أن يعطيهم المايسترو إذنا بالراحة... نهض من مقعده متجهًا إليهم... ظلوا يصفقون بمجرد وقوفه حتى صعوده إلى خشبة المسرح... انتظر طويلاً حتى خفت صوت التصفيق ثم توقف... رأوه على وشك الحديث فسكتوا جميعًا... تأملهم جميعًا بدقة كأنه يستعيد ملامحهم... تحرك تجاه أصغر عازفة فيولينا بالأوركسترا (١٨سنة)... أمسك بيدها فاقتربت بجسدها منه... ترقب الجميع إعلانه عن إعجابه بعزفها ومباركته لها ونبوءته بمستقبلها الموسيقى العظيم... غير أنه لم يقل أكثر من هذه الكلمات (أشكركم على ترحيبكم بيا... بس أنا جاى مخصوص عشان أقول قدامكم كلمتين... على فكرة يا جماعة... "ثم رفع يد الفتاة عاليًا" أنا بأحب فلانة "عازفة الفيولينا صغيرة السن" وباطلب منها قدامكوا كلكم الجواز "هنا قبلته الفتاة على وجنتيه" وعلى فكرة بالنسبة للدكتورة فلانة "زوجته الأستاذة أيضا بنفس المعهد"... أنا اتفقت معاها على كل حاجة..) ثم أحنى رأسه قليلاً أمام الفتاة وقال: فلانة.. تقبلى تتجوزينى، ابتسمت الفتاة بسعادة وقالت أمام الجميع: أنا موافقة...

مرت لحظة صمت طويلة بدت وكأنها إلى ما لا نهاية... كانت يداهما متعانقتين والناس فى شغل شاغل... بعضهم شعر بالذنب لاضطرار أستاذهم إلى المجاهرة بحبه، وغالبيتهم انتظر بفارغ الصبر الخروج من القاعة لمناقشة هذا الأمر مع الزملاء أو للحديث عبر المحمول مع آخرين، ليكون أول من يبلغهم بهذه الواقعة...

إعلان هذه العلاقة كان بمثابة كرة النار التى ألقيت وسط الساحة الفنية بالأكاديمية، وكان يذكى نار هذه الكرة بعض محبى متابعة الكوارث ومشاهدتها والتلذذ بنتائجها بسادية... صديقنا قطعا وهو يعلن قراره كان يعلم بأن هناك حربًا سيشعلها هذا القرار... لكنه لم يتخيلها أبدًا بهذه القذارة... اعتراضات وهمسات من خلف ظهره... استياء مقموع فى الوجوه التى تقابله... أصدقاء يدعون أنهم يعبرون إليه من فوق جسر المحبة، يلومونه ثم يطلبون منه ببجاحة أن يفعل مثلهم، ويدخل فى علاقات متتالية سرية سريعة يستغل فيها سطوة منصبه، وعندما ينتهى منهن يظهر لهن العين الحمرة...

لكنه لم يعبأ بردود الأفعال وتصرف كـ"جنتلمان" مقدما استقالته إلى رئيس الأكاديمية... حفظها الرئيس داخل درج مكتبه وهو يقول له بابتسامة: أنت لم تفعل شيئًا شائنًا... أحببت وتزوجت حسب الشرع والشريعة... لم تهدأ الأمور بل ازدادت اشتعالاً بذهاب بعض من يدعون أنهم أصدقاء إلى والد الفتاة ليقذفوا فى وجهه بسؤالهم المستفز: إنت ازاى تعمل كده؟!... ترمى بنتك لواحد أكبر منها بـ٤٠ سنة... لكن الوالد الموسيقى المخضرم المحب ابتسم فى وجوههم وهو يعدد لهم محاسن زوج ابنته حتى اضطرهم إلى الانصراف فى خزى وغيظ

صديقنا واجه كل هذه التحديات بشجاعة ولكن الأرض كانت قد اهتزت تحت قدميه... وكل الأشياء التى كان يعتقد ثباتها فى حياته لم تعد الأشياء نفسها... الأصحاب الذين كان يظنهم أصحابه والمبادئ التى كان يعتقد فى رسوخها فوجئ بأنها سراب... وفوجئ بمستنقع كبير من القاذورات يتسع تحت قدميه... حتى أن العازفين العاديين الذين كان يفكر فيهم كثيرا وهو يكتب موسيقاه، ويصر على

اصطحابهم معه إلى الاستوديوهات من أجل أن يفتحوا بيوتهم ويزيد إيرادهم... حتى هؤلاء كانت تصله كل سخرياتهم التى يطلقونها خلف ظهره.

عزاؤه الوحيد كان فى الحب الطاهر البريء الذى بدل حياته بسرعة غير عادية وجعله يتحرك بهذه الشجاعة ويواجه بمثل هذا الصمود...

لا يعنينى انطفاء جذوة الحب مبكرًا وتجمد المشاعر سريعًا... لا يعنينى فشل الزيجة أو استمرارها... ولا يهمنى خطأ أو سلامة اتخاذ القرار... يعنينى أنه موقف شجاع ونبيل... اتخذه وجاهر به وتحمل تبعاته... ولم يرتض غير أن يتسق مع نفسه ونأى بها عن ممارسة ألاعيبهم فى السر، وأن يصير مثلهم فى العلن عندما يواجهون الناس بوجه زائف ولسان مدع...

تلقى تليفونا فتورد وجهه وحاسب على مشروباته وخرج... كانت رفيقة عمره الطويل فى انتظاره بالسيارة... ركب بجوارها بعد أن قبل وجنتيها وربتت هى على ظهره بمحبة. انطلقت به تلك النبيلة الأخرى التى تقبلت هفوة زوج محب ورفيق حياة، ولم تشترك أو تشارك فى المولد المنصوب حول حكايته... مضيا معا فى طريق المحبة.

سـيزينيـا

فتاة بحجم طفلة على وشك البلوغ وبحيوية رياضية تتأهب لتحقيق رقم عالمى يسجل باسمها فى الأوليمبياد وبدورة حياة فراشة تتنقل بين الزهور والخرائب والصخور، ثلاث سنوات فقط فى منطقة وسط البلد شغلت بها الناس وشاغلت الكثيرين، ولم تستقر إلا بمثوى كل دابة على ظهر البسيطة، اسمها سيزينيا أو هو الاسم الذى كانت تطلقه على نفسها.. كانت تظهر مساءً وفى ذيلها ضحايا وعشاق... أول شروقها فى أتيليه القاهرة حيث تصطحب الضجة والمرح واللهو إلى المكان... لا تستقر بمنضدة وتشير للجميع بما معناه أنها آتية إليهم...

ويدق رنين هاتف المكان برنات متواصلة فيجرى ساعى المكان يناديها كى تتلقى اتصالاتها، مع العلم بأنه لا يكلف نفسه بمثل هذه الهرولة لرواد المكان وأعضائه، وترغى وتزبد فى تليفونها وتطنب وتسهب والمشتاقون إلى هلتها عليهم وتواجدها بينهم فى انتظارها المتلهف... وتنتهى من مكالمتها ولا يطول مكوثها بطاولة اختارتها فثمة تليفون آخر يستدعيها وثمة ضحكات جديدة ستصل إلى أسماع كل الموجودين...

والغريب رغم أنها ليست عضوة بالمكان ورغم أن كوكبة من الكتاب والفنانين والتشكيليين الأعضاء بالمكان يكونون فى ذات الوقت متواجدين... لم أسمع أبداً بأحد تضرر من سلوكياتها أو وجودها بالمكان أو تحركها فيه كأنها الآمرة الناهية... فلها جسر سحرى من المحبة والابتسام تمده للجميع... أغلبهم يحب وجودها ويتمنى وصالها حتى الصغار المنتمين حديثًا للمكان كانت تستقطبهم بسهولة، والمثقفات اللواتى لهن قدرة كبيرة على الجدال كنا يقلن عنها مسكينة.

الجولة الثانية لها كانت بمقاهى وكافتيريات وسط البلد... خاصة الجزء الذى به كافيتيريا ومقهى "على بابا" ومطعم "زد" ومقهى وكافيتريا أسترا... وهم على رصيف

واحد يواجه مجمع التحرير والهيلتون... فى الصيف أسفل كوبرى المشاة عندما تدق الساعة الثامنة مساءً كان عبد الله جرسون كافيتريا على بابا يخرج بعض الكراسى خارج المحل للزبائن المميزين، كانت لا تجلس بالخارج فهى فى حركة دائمة ما بين دخول المحل للرد على الاتصالات التى ترد لها، أو الخروج لتشاكس العابرين بابتسامة وقد تقف معهم لحظات وتدون أرقام هواتفهم فى "بلوك نوت" صغير كانت تضعه فى جيب بلوزتها...

تنتقل بعد ذلك إلى كافيتريا أسترا ويبدو أنها لم تكن تحب هذا المكان كثيراً لأنها تعود منه بسرعة، وفى أثناء عودتها تدخل محل زد لدقائق لتطلب عشاءها وهو عبارة عن شريحة من المكرونة بالباشميل تسبح على سطحها صلصة داكنة بها قطع صغيرة من الكبد البلدى كان متخصصاً بها هذا المكان، تطلب من الصبى وضعها على أى منضدة بالخارج حتى لو كانت لا تعرف الجالسين حولها... يطلبون منها الجلوس فترفض، وتدب الشوكة فيها وهى واقفة تأكل بضع قطع منها ثم تتحرك وتعود وهكذا إلى أن تنتهى من عشائها، ثم تدخل لتفتح ثلاجة المكان من أعلى وتنتقى زجاجة كولا، تفتح الزجاجة بالمفتاح المعلق بالثلاجة تحت بصر عم عبد الله معتاد هذا التصرف، وتخرج بالزجاجة إلى الساتر الحديدى المقابل الذى يفصل الرصيف عن نهر الطريق... ترتكن عليه بجسدها وتشرب زجاجتها... ويهتم العابرون بالسيارات بمنظرها فيتلكأون وقد يعاكسونها بأيديهم التى تخرج من النوافذ أو بأصوات نفير سياراتهم المتوالى، فتضحك بسعادة... وترجع إلينا مزهوة بنفسها...

هى قادرة على أن تشغلك بها صغيراً كنت أم كبيراً... سلساً كنت أم جادا... فى وقفات الأعياد تسهر معنا حتى الصباح وحين تدق الساعة معلنة انتصاف الليل وبداية اليوم الأول للعيد... تطلق زغرودة جميلة وتتجه إلى كل المناضد... تقبل أفرادها فرداً فرداً حتى لو كانت لم ترهم إلا اليوم... وتطلب منهم أن يعطوها العيدية التى تحددها بربع جنيه ورق جديد وبشرط أن يكتب لها كل فرد تهنئة باسمها على الورقة، ثم تخرج ورقة مالية جديدة بالقيمة نفسها وتسأل الشخص عن اسمه وتكتب له على ظهر الورقة أمنيتها له بالنجاح والتوفيق...

لم يكن لها صديق شخصى حميم إنما كان لها معارف كثيرون، وكانت تقول إنها مخطوبة ولم نر خطيبها إلا مؤخراً... وكانت تتركنا كثيراً بعد أن يستدعى لها عم عبد الله "تاكسى" تركبه ولا تعود وقد تغيب أياماً...

شخص نحيل أطول منها قليلاً يرتدى بدلة صيفية مشابهة للأزياء التى يعود بها القادمون من الخليج، كدرها هذا الشخص وغير حالها... وبدل ضحكتها بابتسامة شاحبة... كانت قد أصدرت تعليماتها بمنعه من دخول الأتيلييه فبدأ ينتظرها فى المقهى... هذا هو خطيبها كما كان يقول، وشخص رذل قوى كما كانت تقول عنه،... وبدأت مشاحنات كثيرة تحدث وبمجرد أن يعلو صوته تحدجه بنظرة يستسلم بعدها ويلح فى استرضائها... واختفيا أياماً كثيرة عنا وظننا أنه عاد إلى مقر عمله بالخليج وهى بصحبته...

كانت سراى النيابة تشغى بالناس المحترمين الذين تم استدعاؤهم من بلوك نوت صغير مخضب بالدماء... وكان وكيل النيابة مذهولاً من هذا الحشد الكبير لأناس ذوى حيثية كبيرة ورجال مهمين... ولحسن الحظ اعترف خطيبها أو من كان يدعى ذلك بأنه القاتل... عم حزن كبير فى هذا الشريط الحيوى فى ميدان التحرير... على هذه الفتاة النشطة التى قضت سنتين فى هذا المكان كأنهما ردح من الزمان...

بعد ستة شهور أتى القاتل بشحمه ولحُمه إلى كافيتريا على بابا، وصمم أن يجالسنا وأرانا صوره من حيثيات البراءة... وقال إنه كان يحبها جدا ويتمنى الزواج بها رغم علمه بتصرفاتها الهوجاء، وأنه أرسل إليها نقوداً كثيرة لتشترى شقة باسمها كما اشترطت عليه مقابل الموافقة على الزواج منه، وأنه طالبها بالوفاء بوعدها فماطلت وأنه علم أنها تستقبل أشخاصاً بالشقة، فذهب إليها يطلب منها استعادتها، ثارت ثورتها وأسرعت إلى المطبخ وأحضرت سكيناً ضخماً ظلت تلوح به أمامه وتهدده وتسبه وتلعنه طالبة منه أن يرحل فالشقة ليست ملكه بل ملكها... والقانون لا يحمى المغفلين... احتد عليها فعدلت وضع السكين من وضع التهويش إلى وضع الإصابة، ووجهت نصل

سكينها إلى صدره، فخاف، وأبعد سكينها فرشق فى صدرها ، تأوهت بوهن ثم ماتت، الذى خلص عنقه من حبل المشنقة التقرير الطبى الذى جاء فى صالحه وبصمات أصابعها التى وجدت على السكين وخلت من بصماته، وشهادة الجيران عن سلوكها وفضائحها وسردهم لكل الشتائم واللعنات التى كانت تصبها عليه وقت الحادثة. وصك البراءة تصدرته كلمة دفاع شرعى عن النفس...

تنفس الرجل بارتياح كأنه يلقى من على كاهله بعبء كبير، وغادرنا ولم نره بعدها، ولم نعد نذكره لكن استمر حضورها فى حياتنا لسنوات طويلة بعدها.

الدكتـــور جـــلال

تحس أن وجهه وجسده من منحوتات المثال العظيم "هنرى مور".. ولون وجهه البرونزى الكالح إلا من بعض البقع التى تقترب من السواد أسفل عينيه وعند حدود ذقنه، وسكوته الدائم مع ثبات بؤبؤ العينين يقربه أكثر إلى حالة الجماد.. لكن يديه وقدميه فى حركة دائمة.. قبضته اليمنى المرتعشة يمسك بها فنجال القهوة الصينى المخصص له وحده دون زبائن المقهى، ويده الأخرى كوعها يرتكز على مسند كرسيه البلاستيك وراحته تمسك بطبق الفنجان، كلما ارتشف رشفة من القهوة وضع فنجاله على الطبق ويظلان يرتعشان بصوت خفيض مقلق..

أظافره صفراء من أثر السجائر الكثيرة التى يدخنها فى اليوم.. سيجارة من سيجارة وفنجال من فنجال.. لم أر فى حياتى أحدا يشرب كمية القهوة التى يشربها والتى تتجاوز عشرة فناجيل فى الوردية (٨ ساعات).. وقد رأيته مرة يحاسب على سبعة عشر فنجانًا فى وردية.. فمه دائمًا صامت ومنفث للدخان ولك أن تتخيل كمية ما يدخنه هذا الشخص.. وأحيانًا كثيرة يلقى فى جوفه ببعض الأقراص الدوائية ويبلها بشفطة مياه.. لم يضبط قط متضايقًا أو مبتسمًا إنما شاردًا على الدوام.. عرفت فيما بعد أنه طبيب أسنان.. يدعى جلال.. وأثنى كثير من أصدقائنا على مهارته فى مهنته بعد أن تطفلوا عليه فى المستشفى الحكومى الذى يعمل به ويخدمهم فى أسنانهم أنواع الخدمات كافة من حشو الضروس والخلع وأحيانا التركيبات مجانًا...

جلسته دائمًا بداخل المقهى الضيق لأن النصبة والثلاجة تأكل ربع المكان ورصات الكراسى والمناضد الإضافية تأكل الربع الآخر وتشكل بذلك ممر خانق.. ولم يجلس الدكتور جلال مطلقا فى الشارع أو فى الممر المقابل حتى لو كان الوقت صيفًا حارا

فظيعًا يجبر عامل النصبة ذاته على عمل المشروب، ثم الخروج سريعًا ليقف بالخارج متقيًا حر جهنم بالداخل.

كان لا يحتك بالمثقفين ولا يأبه لإنجازاتهم، إذا ما أراه أحدنا قصيدته المنشورة بالصحف أو قصته،اضطر مجاملة إلى التحديق فيها بعين عمياء باردة ثم لا تعليق.. لم يكن يتحرك قط إلا داخلاً أو خارجًا.. أو عند حضور خادمته النوبية البدينة التى كانت تأتيه يوميا صباحا، فى الأيام التى تكون فيها ورديته بالمستشفى ليلاً.. تقف السيدة أمام المقهى.. إن رآها هرع إليها سريعًا كالطفل الذى طال اشتياقه لأمه.. وإن كان فى شروده السرمدى ونبهه عامل النصبة لحضورها.. اندفع إليها كالأهوج واصطدم فى طريقه بالكراسى، أو حطم فوارغ الشيشات أو قلب المناضد المعدنية الصغيرة بما عليها من مشروبات.. كأنه يعاقب نفسه على تركه للعجوز تنتظر بالخارج.. كان كريمًا وسخيا على كل عمال المقهى فكانوا لايعبأون بما يخلفه من خسائر، فهو يعوضهم دائمًا عما لحقهم من أذية مادية.

يقبل على خادمته العجوز وبكل حنان يتناول منها التفاحة أو الموزة أو أى نوعية فاكهة تحضرها له معها بالإضافة إلى لفة السندوتشات.. تظل تلح عليه وتحلفه أن يأكلها وهو يعدها بابتسامة، ويظل ينظر إلى ظهرها حتى تختفى من أمامه كأنه حارسها الأمين.. أحيانا يأكل ساندويتش أو قضمة منه وغالبًا ما يهدى اللفة كلها لعامل النصبة أو عامل الأرضية الذى يخدم عليه..

علمت فيما بعد أنه وحيد والديه.. توفى والده عقب امتحانات الثانوية العامة ولحقت به أمه فى سنته الأولى فى كلية الطب.. وتركاه فى الشقة الكبيرة الباردة مع خادمته النوبية التى ربته صغيرًا.. هذه السيدة العظيمة ظلت معه ولم تتخل عنه، وساندته ضد طمع أقاربه فى الشقة وأفسدت مؤامراتهم فى الإقامة معه بدعوة متابعة تعليمه، بينما هم يجهزون العدة للاستيلاء على أمواله وإرثه.. لحسن حظه أنهم كانوا أقارب بعيدى الصلة، واستعانت السيدة بجار محام وقف معهما ودحر الغزاة.. واجتاز الدكتور جلال سنواته الدراسية وأصبح طبيبًا.. لكن يبدو أنه لم يعبر أزمته الكبرى بوفاة والديه وهو فى سن مبكرة.. كان يبدو كالطبيب الناسك.. الحالم.. غالبًا فى كون آخر اتخذه بديلاً عن كوننا الراهن...

لى موقف معه فى بداية تعارفى عليه.. تعارفى عليه يعنى أن ألقى إليه بالسلام ويرده أو لا يرده ليس مهما.. شكوت من ضرس ينقح على، فاقترح صديق أن أريه للدكتور جلال عله يكتب لى مضادا حيويا أو مسكنا.. استبعدت الفكرة لكن صديقى ظل يلح والألم يشتد على، وأغرانى بحكايته عن سحر يد الدكتور جلال عندما عالجه بسهولة ودون ألم وجعله لم يعد يشكو من أسنانه قط.. لم يهتم الدكتور جلال بفمى المفتوح أمامه داخل المقهى، فقط سلمنى الطبق وفنجان القهوة حتى لا تندلق، وجذب قلما من جيب بدلته، وعلى ورقة صغيرة كتب اسم المستشفى الحكومى والطابق الذى يعمل به.. وطلب منى أن أذهب إليه فى المساء لفحص أسنانى كلها...

ذهبت إليه طبعًا لأكثر من سبب.. أولها ضيق ذات اليد أيامها ونحن خريجو جامعات لم نعمل بعد.. وفضولى الشديد الذى يلازمنى منذ الطفولة والذى كاد يودى بى كثيراً.. نسيت أن أذكر لكم أن الدكتور جلال كان من هواة ارتداء البدلة الكاملة ورابطة العنق حتى لو كنا فى عز الولعة، وكان يومها العرق يبلل البدلة من إبطيه مكونًا خيوطًا من الملح تضىء فى سواد البدلة الكالح..

تخلى عنى صديقى ورفض الذهاب معى إلى المستشفى كأنه يعلم ماذا سيحدث.. وذهبت متصوراً أن الطابق الرابع فى المستشفى الحكومى العريق يعنى مركزًا متميزًا واكتشفت أنه يعنى السطح، وأن المصاعد تتوقف فى الدور الثالث، والسطح به غرف الأرشيف ومخازن المستشفى، وأن فى نهاية السطح غرفة تبدو كغرف الغسيل المخصصة للمبنى كله كالمتبع فى مبانى وسط البلد قديماً، هذه الغرفة بالذات هى موقع الدكتور جلال بهذا المستشفى الحكومى العريق.. ولكى تصعد إلى السطح هناك باب خشب صغير يجب أن تجتازه كى يقابلك درج معدنى ضيق.. تصعد عليه وأنت تتفادى الشاش الملوث بالدماء وخيوط الجراحة الدقيقة وقطع القطن مشبعة بالميكروكروم وصبغة اليود الملقاة فى كل مكان..

بمجرد دخولى السطح هبت ممرضة كانت تجلس [illegible] وهى تقضم رغيف كشرى.. سألتنى وفمها يكاد يقذف بحبات الأرز فى وجهى: عايز إيه يا أستاذ؟.. سألتها عن عيادة الدكتور جلال، أشارت إلى نهاية السطح وهى تتفحصنى بدهشة

وزميلتها تقلب شفتيها استهانة بى أو الدكتور - الله أعلم -.. قابلنى الدكتور جلال بحياد ولم يشغله أنى أتفحص بدقة البالطو الأبيض الذى يرتديه والمبقع ببقع مربى وبيض وقهوة.. والمنفضة المملوءة بأعقاب السجائر التى تتوسد مكتبه.. كان المشهد بكامله عبثيا.. جدران الغرفة مزينة بالشروخ.. وتتدلى من السقف لمبة كهربائية كبيرة على كرسى الخلع مباشرة.. وكرسى الخلع أسوأ من كرسى حلاق المناطق الشعبية.. وهناك آلة وحيدة لخلع الأسنان وبعض القواطع المعدنية الملقاة بإهمال.. وبجوار الكرسى حوض مياه صغير لزوم غسيل الفم بعد الخلع.. لم يكلف عامل المرمات نفسه بإضافة بعض الأسمنت الأبيض أو الجبس إليه ليجعله مقبول المنظر بعض الشىء.. باختصار لو كلفنا مدير إنتاج حرامى يسرق الكحل من العين، وكانت ميزانية الفيلم هى ميزانية أفلام المقاولات، بالبحث عن عيادة طبيب متواضعة بمنطقة شعبية لم يكن سيعرض علينا غرفة فى مثل هذا السوء..

لم يكن أيامها قد انتشر هوس التعقيم وفوبيا النظافة.. ورغم ذلك جلست أبسمل وأحوقل طيلة جلستى على هذا الكرسى العجيب.. وللحقيقة والتاريخ كان دكتور جلال يرتدى قفازًا كاوتشوك فى يده وهو يدق على كل ضروسى وأسنانى بآلة غامضة لم أتبين ماهيتها لأنى بالفعل كنت مغمضًا عينى.. صرخ فى الممرضة فأتت بعد فترة وآثار الكشرى مازالت حول جوانب فمها.. طلب منها أن تحضر بسرعة **Rabber dam** نظرت إليه الممرضة طويلاً.. ثم قالت: حاضر.. تفحص الدكتور جلال أسنانى كلها باهتمام وأنا منشغل بوضع خطة للهرب.. هم بمناداة الممرضة فسألته عن السبب.. فقال لى: أصلها تأخرت فى إحضار "الربردام" وكمان أصل أنا عايز آخد عينة من لعابك عشان أحللها واكتبلك المضاد الحيوى المناسب، وكانت هذه هى الفرصة الذهبية للهرب متعللا بأن الألم هدأ وبأنى سأحضر له عينة من لعابى فى مساء الغد.

غادرته فارا بجلدى وعندما سألت أحد أصدقائى من أطباء الأسنان بعدها بفترة طويلة عن الـ **Rabber dam** وأهميته.. ضحك طويلاً وقال إنه شىء لايستخدم إلا فى عيادات لندن وباريس وعيادات السوبر ستار.. وإنه بالقطع لن يوجد فى المستشفى الحكومى حتى لو كان يديرها وزير الصحة بنفسه..

كبر الدكتور جلال ولم تتغير عاداته ولم تتبدل أحواله.. دائمًا في صمته الأبدي والسمت الصوفي، لكنه في الفترة الأخيرة لم يعد يظهر بالمقهى، وتصورت أن شيئًا ضايقه من المكان فاستبدله.. لكن رأيته أخيرا يدفع كرسيا بعجل تجلس عليه خادمته العجوز بعد أن أصابها الشلل ساعة العصاري، وكان يتوقف ليزيل قطع الحجارة من أمام الكرسي.. أو يطبب على رأسها.. أو يميل عليها برأسه ليقول لها كلاما في أذنها.. أو يناولها قسرًا شريحة من التفاح وهو يصر على أن تلتهمها أمامه.. أحب هذا الرجل الذي أهمله التاريخ فصنع تاريخه الخاص.

القسم الثالث

حكايات التحرير

الثـــورى الحـــالم

هو شخصية شهيرة فى منطقة وسط البلد لطوله الفارع وبنيته التى تقترب من البدانة، وشعره المسترسل خلفه الذى دب فيه الشيب مؤخراً، ولحيته المكتسية بياضاً التى يطلقها أحياناً فتبدو كلحى السلفيين أو القساوسة، ومقدمة رأسه الضخم التى تكاد تبدو خالية من الشعر.. ولديه أيضا بطن عظيم يزيده وجاهة، كذلك "التى شيرتات" القطنية اللافتة للنظر التى يرتديها بيير، وتصير بعد أن يرتديها موضات يقلده فى اقتنائها ولبسها الكثيرون.. وكل "تى شيرت" بحال.. فإما على صدره وظهره رسوم عادية مجردة أو كلمات بلغات أجنبية مختلفة بذيئة أو عابرة للتابوهات.. أو عبارات طريفة وسط ألوان فاقعة.. أو رسوم كاريكاتورية غريبة عن سكان الفضاء أو حيوانات خيالية ليس لها وجود إلا فى مخيلة راسمها، وفى الجزء التحتانى بنطلونات غالية من القطن أو الكتان، أو رخيصة من التيل أو الدمور، اللافت فيها جيوبها التى كثيراً ما تظهر منها بطانتها دون أن تعود مرة أخرى لمكانها.

فى عز الثورة عندما خرج تعبير البلطجية فاجأنا فى اليوم التالى مرتديا "تى شيرت" مكتوبا عليه عبارة "أنا بلطجى" ثم "أنا من الفلول" ثم "الجيش والشعب إيد واحدة مبتصققش".. رغم أنه أحد أبطال ثورة يناير الحقيقيين وله دور عظيم لم يسمع به الكثيرون.. كنت على يقين أنه لو فشلت هذه الثورة، لكان بيير من أوائل من سيقبض عليهم ويتهم بأنه إرهابى ويأوى إرهابيين وجواسيس وخونة.. سيجرون معه مقابلة تليفزيونية قبل إعدامه.. وستسأله المذيعة البلهاء عن كيفية تورطه فى الإرهاب، كيف وهو ممثل وفنان تشكيلى وغنى وليس فى حاجة لأموال من الخارج؟ سيبتسم بيير ويقول لها بسخرية: إنه تجسس على مصر نظير وجبة الكنتاكى لأن الطبيب منعه من أكل

الأطعمة الجاهزة، لأنها تزيد الكوليسترول، وكان الطبيب يراقبه مراقبة دقيقة.. وفى أيام الاضطرابات اختفى الطبيب.. وسال لعابه على الوجبات السريعة فتجسس على إخوانه وأصدقائه.. وإنه يتمنى من مجموعة عمل البرنامج إهداءه شريحة بيتزا أو حتى ريشة من ريش الحيزبون عفاف شعيب.. وسيعدم بيير على الهواء مباشرة وهو يرتدى تى شرت أسود مكتوبا عليه بالأصفر الفسفورى (أنا خائن.. أنا عميل).

بيير يعيش حياته كلها على سبيل الهواية.. فرغم أنه يعرف ويتقن ثلاث لغات مع إضافة العربية.. وكان من أوائل المدونين على الشبكة الإلكترونية بكل اللغات التى يعرفها.. هو أول من أدخلنا الـ **Face book**، وعمل لنا حسابا فيه، وكان يطاردنا على المقهى إن تكاسلنا ولم ندون أو نعلق أو نضف أصدقاءً أو صوراً.. وكنا نتندر بأن بيير قادم ومعه عصا سينهال بها على من لم يدخل "الأكوينت" ويفعّله.. ولأنه هاو بامتياز فرصيده الفنى فى السينما والتليفزيون والمسرح قليل جدا.. ومعارضه الفوتوغرافية أقل.. لكنه مقتنى تحف ولوحات وعاشق لكل قديم.. ويمتلك مجموعة ضخمة نادرة من أفيشات السينما المصرية فى عصرها الذهبى فى الثلاثينيات والأربعينيات حتى السبعينيات وكذلك أفيشات الأفلام العالمية الكبيرة التى عرضت بمصر.. ويمتلك أيضاً عمارة ضخمة فى قلب ميدان التحرير أمام عمر أفندى ذات عشرة طوابق.. شقة بيير فى الدور العاشر تحتل الدور كله.. وهى محتشدة دائماً بأصدقائه الفنانين والمفكرين.. ولهذه الشقة دور عظيم مثله فى الثورة.. ففى جمعة الغضب ٢٨ يناير.. صعد كثير من الأصدقاء إلى شقة بيير هرباً من جحافل الأمن وعنف قذائفهم وتبعهم آخرون - لا يعرفون بيير - سدت أمامهم سبل النجاة.

بيير بحكم تركيبته "الكوزموبوليتانية" التى يبدو أن بها أصولاً تركية أو يونانية.. له لهجة آمرة فى الشارع وفى المقهى وفى بيته على جهة خاصة.. ولا يفرق بين صديق حميم أو جديد أو شخص لا يعرفه.. ممكن أن لا تعجبه المناقشات الفنية أو السياسية التى تدور حوله ويتناقش فيها.. فيطرد فى حدة الشخص الذى ضايقه بأفكاره.. وينسحب الشخص حانقًا مقسماً على أنه لن يعود، ثم يعود بعد يوم أو اثنين.. وشقة بيير مشاع للجميع فيما عدا غرفته الخاصة.. ورغم أنه كريم بالسليقة فإن عليك أن

تتوقع أنه لن يقدم لك مشروباً أو يحييك بسيجارة أو حتى يبتسم فى وجهك.. عليك فقط أن تتبع سلوك الموجودين.. تدخل إلى المطبخ وتخرج بما لذ وطاب.. تمد يدك إلى البار وتصب لك كأسا، تعتلى الكنبة وتضطجع مادا قدميك إلى وجوه الجميع.. تخرج من الحمام ومؤخرتك نصف مبتلة لأن ورق التواليت فى هذا الحمام نفد.. وتسأل بيير فلا يرد عليك، فقط ينظر لك بقرف، وأحدهم يشير لك باتجاه الحمام الآخر.

كلما توغلنا فى أحداث الثورة.. كان العدد يتزايد فى شقة بيير وتتسع مساحات الغرباء.. الذين يعاملهم بيير بتجاهل تام كأن بصره لا يقع عليهم، وكانوا يتحملون، فهذا أهون من النزول إلى جحيم الميدان فى تلك الأوقات.. ضيوف بيير أغلبهم فنانون وأجانب وبعضهم من وجهة نظر الغرباء لهم أطوار غريبة.. شباب شعرهم على هيئة جدائل أو بذيول حصان أو حليقو الرؤوس بالموسى.. وفتيات بملابس قصيرة، صدورهن عارية ينظرن من الشرفات فى حماسة أو فى فزع، ثم يعدن ليملأن كؤوسهن حتى يتماسكن.. وفى الطرقات بعض الأشخاص يصلون على ورق الجرائد.. والمناقشات تدور بين الجميع.. وبيير يشارك فى بعض اللحظات ثم يتركهم فاتحًا أكبر عدد من الغرف المغلقة حتى يتمكن من إيوائهم... وفى الصباح هو أول من ينزل مع بعض أصدقائه، ويعود محملا بأكياس ضخمة مليئة بساندوتشات الفول والطعمية، اشتراها من المناطق الآمنة البعيدة عن الميدان لإفطار المقيمين.

بيير أول من علق على عمارته - بطول العمارة كلها - اللافتة التى تحمل مطالب الثوار السبعة فى أول الثورة والتى صورتها كل وكالات الأنباء وهى:

١- إسقاط الرئيس.

٢- حل البرلمان.

٣- إنهاء حالة الطوارئ.

٤- تغيير الدستور.

٥- الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين.

٦- محاكمة كل المسئولين عن الفساد.

٧- تشكيل حكومة مدنية.

واستضاف معظمها ليصوروا الأحداث من شرفات شقته دون مقابل مادى.

وفى الفترة التى كان التليفزيون المصرى يدّعى أن عدد المعتصمين بالميدان بضع مئات، ورجال الأمن والمخابرات يطاردون وكالات الأنباء والمصورين حتى يعزلوا الميدان عن العالم.. فى هذا الوقت الخطير جازف بيير واستضاف قناة الجزيرة ووكالة أنباء إيطالية، واصطحبهم إلى سطح عمارته، وخبأ كاميراتهم وأجهزة بثهم، وسط ركام من الحجارة والخشب والمهملات والكراكيب، ومكنهم من بث لقطات حية -لحظة بلحظة- لمعارك الميدان، وصلت إلى العالم كله وأنقذت الثورة من الانكسار.. وتعرض لأكبر كم من الضغوط، وهو يواجه يوميا ضباطًا وأفراد أمن وحرسًا جمهوريا يفتشون شقته ويبحثون فى كل مكان عن أجهزة البث ولا يجدونها.. فينزلون وهم يتوعدونه.. والمدهش أنه لم يقبل أجرًا من قناة الجزيرة ولا من أية وكالة أنباء أخرى عالمية أو عربية.. بل أنه فى الأيام الأخيرة لمبارك حتى التنحى وما بعده، رفض عرضًا هائلاً من قناة الـ B.B.C. لاستغلال شرفته، بعد طلبهم استضافة خبراء سياسيين للتعليق على الأحداث، ومن خلفهم يظهر ميدان التحرير.. رفض هذا العرض احترامًا للميدان الذى يحبه منذ أن كان طفلاً.. وكان ينهر كل مصور حتى من أصدقائه المخلصين لو أنه اهتم بتصوير الأشخاص فقط لا الميدان، مهما كان هؤلاء الأشخاص أعلاما مهمين أو سياسيين بارزين، أو نجومًا من الذين يطاردهم المعجبون للحصول على توقيعهم.. كما كان يقمع أصدقاءه الفنانين المشاهير، لو تعالوا على الأشخاص الغرباء المقيمين بالشقة والذين لا يمتون لبيير بصلة.

فى أحد الأيام الأولى للثورة صعد أحد شباب الإخوان إلى شقة بيير وسط زمرة الصاعدين.. وظل جالسا مرتبكًا وهو يتأمل هذا الخليط العجيب من الناس.. وكان بجوار الكنبة التى يجلس عليها منضدة صغيرة يسند كوعه عليها، حتى لا يختل توازنه ويقع كلما انضم شخص إلى الكنبة.. وكانت على المنضدة زجاجة ويسكى..

والشاب الملتحى يحاذر أن يمس كوعه الزجاجة أو يتماس مع ظلها.. ثم هدأت الأمور ليلاً وانطلقت المناقشات.. اشترك الشاب الملتحى فى البداية بحذر، ثم بحماسة، وعندما أطفأ بيير الأنوار ونام الجميع استعداداً للمشاركة فى الصباح التالى.. غادر الشاب الملتحى المكان وظننا أنه لن يعود إلى بيت بيير مرة أخرى.. بعد أن نام والأيقونات القبطية أمامه وزجاجات الخمور تحاصره والعاريات يتحركن بحرية أمامه.. المدهش أنه عاد فى اليوم التالى يصطحب ابنه الصغير.. وفى اليوم الثالث طلب من بيير أن يعلق لافتة للإخوان على واجهة المنزل.. طلب منه بيير أن يفردها أمامه ليقرأها، وعندما وجدها خالية من الطعن فى معتقدات الآخر، وتحمل بعض الأفكار المتشابهة مع أفكار الثوار، سمح للملتحى وأصحابه بأن يعلقوها على واجهة المنزل.

شقة بيير مليئة بالمقتنيات الغالية تتمثل فى لوحات تشكيلية بتوقيع فنانين مصريين مهمين ومشهورين، وتماثيل صغيرة من البرونز والخشب، بعضها صغير الحجم ويمكن وضعه فى الجيب دون أن يحس أحد.. كما أن بيير مهمل فى حمله للنقود والتعامل بها.. كثيراً ما تقابله فى الشارع وهو يتسوق، والنقود الورقية تبرز من جيوب بنطاله الجانبية ومحفظته المكدسة بالأوراق تطل برأسها من جيبه الخلفى.. وكثيراً ما فقدها أو وقعت من جيبه على مقعده بالمقهى، وعندما ننتبه لها نتصل به ليعود فيأخذها ويسمع تأنيبنا له بلامبالاة.. فى الشقة الأمر مختلف قليلاً فنقود بيير مبعثرة فوق المكاتب وداخل الأدراج ورقية ومعدنية.. رغم معرفتى بسلوك بيير فى التعامل مع النقود.. فإننى أحسست أنه خلال الثورة تركها عامداً لعل أحد الموجودين يكون فى حاجة إلى نقود فيأخذ ما يكفيه.

كثيراً ما يختفى داخل أروقة الشقة الواسعة، لكن فجأة يأتينا صوته هادراً من إحدى الشرفات، لرؤيته منظراً لم يعجبه، أو من أغوار المطبخ وهو يوبخ أصدقاءه وصديقاته.. الصديقات الفنانات المنهكات فى مساعدة الطاهية فى طهى حلل العدس الضخمة التى يصر بيير على الأمر بطهيها، وتوزيعها على الثوار حتى يقاوموا الجوع وبرد الشتاء.. ومشروب الزنجبيل.. الذى يأمر بعمله فى الصباح الباكر.. وهو يقسم العمل.. صديقة لتلقيم أكواب الزنجبيل -ملعقة لكل كوب داخل الصينية التى تسع ٤٠ كوباً -.. وصديقة أخرى لوضع ثلاث ملاعق سكر لكل كوب.. وأخرى لصب الماء الساخن

وأخرى لتقليب المزيج، ثم تخرج من شقة بيير فى تمام الساعة السادسة صباحًا.. ست صينيات كبيرة، كل صينية عليها ٤٠ كوبًا مليئة بالزنجبيل.. يحملها الرجال وينزلون بالمصعد.. تكون ساعات الحظر قد انتهت.. وأفاق الثوار من رقدتهم.. وبدأوا يعدون فى الميدان كمن يتريض.. ويتجرعون أكواب الزنجبيل فى عجالة ويكملون ركضهم.. قرار بيير بعمل الزنجبيل الصباحى لم يكن قرارًا علويا يجب على الجميع الانصياع له بدون مناقشة.. لأنه تفضل بشرح أهميته.. الزنجبيل يدفئ الثوار فى الأصباح الباردة وهو مفيد جدا والمهم أنه يجلى الأحبال الصوتية.. ويعالج حناجر الثوار الذين يهتفون ليلاً ونهارًا فتتحشرج أنفــاسهم ويبح صوتهم فيفقدوا تأثيرهم على الناس.. وفعلاً بمجرد شربهم هذا المشروب العبقرى يعود صوتهم أجمل وأقوى مما كان.

إذا ما تكدس الناس فى شقة الدور العاشر كان بيير يصطحب أصدقاءه المقربين، وينزل معهم إلى شقة والدته فى الدور السابع تاركًا الدور العاشر كله لثوار لا يعرفهم ولا يهمه ما سيفعلونه بالشقة ومحتوياتها.. كل ما يهمه أن يؤمن لهم العشاء والسجائر ويطمئن على رقادهم.. الملحوظة المهمة أن المتشددين الذين كانوا يصعدون إلى شقة بيير لأول مرة.. بعد أن تباغتهم رؤية عالم آخر سمعوا عنه كثيرًا لكنهم لم يروه عن قرب.. يتبدل شعورهم بالاستياء من مناخ الشقة العام ورؤية السافرات بمجرد أن يدخلوا فى حوارات مع الموجودين حول مستقبل هذه الثورة.. وهل ستدوم؟ أم سيقبض عليهم جميعًا.. أم سيستشهدون؟ ثم تتغير نظرتهم لهؤلاء الفتيات اللواتى كن يقاتلن معهم كتفًا بكتف وكن يصبن ويتأذين مثلهم من أجل غد أفضل.

بيير الذى كان يقضى أيامًا كثيرة بلا نوم أثناء الثورة.. ويقسم يومه ورديات لخدمة المقيمين معه والنزول إلى الميدان.. لو رأيته نائمًا أثناء الثورة فستدهش من كم الأدوية التى تجاور سريره فهو مريض بالضغط والسكر وبعض أمراض البدانة.. وممنوع من شرب السجائر والثورة جعلته يأكلها أكلاً.. وأصدقاؤه فى خوف دائم على صحته فهو كمن ينتحر.. ساعات قليلة ويستيقظ وتستدعيه روح ميدان التحرير فيهب نشيطًا.. يتجرع قهوته فى عجالة.. وينزل لإحضار الفطور.. ولا يكتفى بما يقدمه من

دعم للثوار بالإقامة عنده.. لكن يقدم واجبًا آخر للميدان.. إضافة إلى نزوله اليومى للمشاركة والتصوير.. له ساعة يوميا يعلق فيها لافتة تدين زاهى حواس لمسئوليته عن سرقة المتحف.. يلف الميدان كله أكثر من مرة وهو يحمل تلك اللافتة المكتوبة باللغات الثلاث.. منظره الضخم قد يبدو غريبًا للعامة والصعاليك والشباب الصغير.. يشاكسونه وقد يسخرون منه.. لكنه مشغول عنهم بقدسية ما يفعله.. وعندما يجد من يهتم بالحوار معه.. يقف ويكلمهم وهو يشير إليهم مستغلا خبرته فى الأداء المسرحى وتزيد مساحة الملتفين حوله.

من المشاهير الذين أقاموا عند بيير أثناء الثورة، أم خالد سعيد وداود عبدالسيد وخالد أبو النجا ومحمد خان ووائل غنيم وغيرهم..

بيير الذى قطع رحلته فى أوروبا ليعود إلى مصر ويشارك فى الثورة، محبط الآن لتصوره الرومانتيكى التطهرى عن الثورة.. كان يعتقد أن الثورة ستعيد تشكيل الوعى الجماهيرى بسرعة.. ثم فوجئ بأن الثورة المضادة والفلول لا تزال قوية وظهرت طبقة تنتسب للثورة زوراً وبهتانًا.. فى تلك اللحظة فكر بيير فى أن يهاجر.

بيير الذى فتح عينيه على معالم الميدان وهو وليد، ولم يمر عليه يوم دون أن ينظر إليه فى الصباح والمساء، أو بالتعبير الدارج (ماشالش عينه من على الميدان)، بعد تنحى مبارك ونزول الجميع إلى الميدان، وتحول الميدان إلى ما يشبه الزار البلدى، وكثرت به عربات الكشرى ولحمة الرأس والكسكسى وبائعو العصائر الملونة، كلما نظر إليه الآن يكتئب ويكاد يبكى.

نمــر الثــورة

كمــال خليــل

لو لم تكن لك معرفة سابقة به ورأيته أول مرة، فلن تصدق أن هذا الرجل النحيل الذى يقترب عمره من الستين عامًا، له هذا التأثير المذهل فى الجموع، بمجرد أن يلمحه أحدهم وامضًا كالضوء من بعيد، تسرى الهمهمات وتشرئب إليه الأعناق، من لا يعرفه يسأل من يجاوره عن هوية القادم، تستعيد الحناجر فتوتها وتنشط حركة الأيدى، حتى الجنود المخضرمون يبتسمون وهم يحاولون إخفاء إعجابهم به، تتسع خطواته حتى يقف فى قلب الحدث، يتحفز الضباط فجأة، وكقائد الأوركسترا الماهر يعطى ظهره للقوات المحصنة خلف دروعها ويومئ للمتظاهرين برأسه وهو يصوغ الهتاف الذى سيرددونه بعده، ثم يتحرك بعافية وسرعة ورشاقة فى المساحة التى ارتضاها وهو يتغنى بهتافه بصوته القوى الجميل، ثم يندمج مع رجع الجماهير فيتحرك جيئة وذهابًا فى خفة النمر مشعلاً الحماسة وشاغلاً القلوب، لن يبالى بالهراوة الموجهة إلى ظهره، ولا بالبنادق المشرعة نحوه، ولا بالقسمات المحتقنة بالغضب للضباط، بل سيستدير بجرأة الصياد المحنك ويشير إليهم بسبابته هاتفًا "الحرامى أهه..الحرامى أهه" غير آبه بنظراتهم المتوعدة الزاجرة ولا بسخريتهم ولا بتهديدهم بسحله كالمرات السابقة، ويغيظهم جدا أن تهديدهم يزيد وجهه إضاءة وبسمته براءة.

له إطلالة ساحرة تسرق الأضواء، وتدفع الدماء فى عروق المتظاهرين وتكسوهم بحالة من حالات النشوة تقترب بهم من الوجد الصوفى... يساعده جسده النحيل وانحناءة تكاد لا تلحظ فى الكتفين على الأداء الحركى.. يقف أمام المتظاهرين وفى مواجهة القوات المدججة بالأسلحة والدروع كأنه على خشبة مسرح الشارع.

وذهنه يرتب أنواع الهتافات التى تصلح للمواقف المختلفة... وله وجهة نظر متميزة فى الهتاف... ليس شرطًا أن يكون مسجوعًا أو موزونًا.. المهم أن يلمس الهتاف إحساس الناس أو كما يقول شاعرنا الجميل نجيب سرور "الشعر مش بس شعر لو كان مقفى وفصيح... الشعر لو هز قلبى وقلبك.. شعر فصيح".

فى البداية يتفحص بعينيه الثاقبتين أعداد المتظاهرين.. إن كانوا قلة.. فالهتاف لابد أن يكون طويلاً له إيقاع مسرحى.. يهتفه بروح قائد الأوركسترا ويردده خلفه المتظاهرون.. كأغلب الهتافات التى تصدرت المظاهرات فى السنوات الأخيرة قبل ثورة ٢٥ يناير.. ولابد أن يشتمل الهتاف على شعار سياسى صحيح نابع من مشاعرهم وأحاسيسهم.

المظاهرات القليلة العدد أغلبها غير متحركة - أى ثابتة فى مكان ومحاصرة من قوات الأمن - ومعظمها تظاهرات لإعلان موقف من قضية أو حدث ما - كإعلان موقف القوى الوطنية من تصدير الغاز لإسرائيل - وهذه المظاهرات تعتمد على الهتاف والمنشور، أى توزع فيها المنشورات باليد.

أما هتافات الأعداد الكبيرة فهى قصيرة وجماعية يرددها الجميع بلا حاجة لقائد الأوركسترا كهتاف "الشعب يريد إسقاط النظام".

ثم هناك المظاهرات الصامتة وهى فكرة جديدة ابتدعها الشباب بعد اغتيال خالد سعيد وتميزت هذه المظاهرات بالأعداد الغفيرة من الأشخاص الذين لم يكن لهم انتماء سياسى ثم تحولوا بعد ذلك إلى السياسة وكان لهم دور عظيم فى ثورة ٢٥ يناير.

" قول يا مبارك يا مفلسنا

إنت بتعمل إيه بفلوسنا "

سيظن كثير من القراء بأن هذا الهتاف ردده الناس بعد تنحى مبارك والمطالبة بمحاكمته.. وسوف يدهشون عندما يعلمون بأن هذا الهتاف صاغه كمال خليل وظل يردده خلال العامين السابقين للثورة دون خوف على حياته أو حياة أسرته..

وكان يروح جيئة وذهاباً فى المنطقة الفاصلة بين الحيز المكانى الذى يقف خلفه الأمن المدجج والحيز الذى يلوذ به المتظاهرون وهو يشير إلى قواد الداخلية الذين ينظرون إليه بغضب "يا ضباط الداخلية... عيشوا بشرف.. جاتكوا القرف" أو "يا مباحث أمن الدولة... إنتوا مباحث دولة مصر ولاّ مباحث دولة إسرائيل". والغريب أن هتافاته عن الغلابة الذين أصبحوا على الحديدة كانت تحرك مشاعر المجندين خلف دروعهم وتجعلهم يشاركون المتظاهرين فى الهتاف لكن بلا صوت مسموع..

حدث فى يوم من أيام شهر سبتمبر عام ٢٠٠٨ أثناء إعداد قافلة للتضامن مع أهل غزة، أن انتصف الليل وحل التعب بمن يحمّلون القافلة بالأجولة الغذائية وصناديق الإسعافات الطبية والبطاطين والملابس الثقيلة، وبدا أن القافلة لن تتحرك في موعدها، فجأة دوى صوت كمال خليل" اللى ف غزة دول اخواتى..طبقة فقيرة زى حالاتى" وهنا انتاب الجميع عاصفة من الحماسة حمّلت القافلة فى دقائق بلا تعب ولا نصب.

هو مخلص جدا لقضيته التى عمادها الأساسى الانحياز للفقراء، مدهش دائمًا فى التعبير عن آرائه واتساقه مع ذاته كقديسى الأساطير، عندما قرر أن يرشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية الفائتة عن دائرة إمبابة، لم يلبس البذلة والكرافتة كعادة المرشحين، أصر على التجول على قدميه بالقميص والبنطلون بين الأزقة والحوارى، يحاور الناس العاديين أمام بيوتهم ويجالس البسطاء على مقاهيهم البلدية، لم يعدهم برشوة أو يغازل أحلامهم بوظائف لأولادهم وأكشاك لهم لبيع السلع على الطريق، لم يحدثهم عن الخدمات والمشروعات والإعانات التى سيقدمها لأبناء الدائرة..إنما تحدث معهم عن فساد النظام، وعن حلمه بمصر المستقبل بلا قانون طوارئ ولا معتقلات سياسية، ووعدهم بالمحاربة من أجل دستور جديد يضمن المساواة للجميع، منافسوه فى تلك الانتخابات كانوا يضحكون ويسخرون من طريقته فى الدعاية لنفسه بلا بلطجية ولا سرادقات انتخابية، وفرحوا قليلا بنصرهم الزائف المزور فى تلك الانتخابات، ثم أفاقوا على مصر جديدة تمامًا عنهم، كان قد بشر بها كمال خليل وهم عنه ذاهلون، وانتبهوا الآن فقط لرجع صوته "ارفع راسك فوق..إنت مصرى".

اعتقل كمال خليل مساء يوم ٢٥ يناير وأفرج عنه يوم ٢٨ يناير أثناء تظاهره بدوران شبرا، وكان مجموع المقبوض عليهم معه٥٢٠ شخصًا، تفرس فيهم كمال أثناء اعتقالهم معه بمعسكر القوات الخاصة فى مدينة السلام، وفرح فرحة حقيقية عندما اكتشف أن غالبيتهم وجوه جديدة لم يرها من قبل، وشعر لحظتها بالأمل... وعندما استدعوه فجراً للاستجواب.. قال له المحقق: إنت المتهم الأول.. ابتسم كمال وقال: هذا شرف لا أستحقه وختام جميل لحياتى. هرش المحقق رأسه وقال: عددكم ٥٢٠.. منكم ٢٠ إخوان و ٢٠ قوى سياسية أخرى لكن المشكلة فى ٤٨٠ مش عارفين نصنفهم.. ممكن تصنفهم لنا؟

رد كمال باستنكار: دى مش شغلتى ده شغلكم!

المحقق: حنصنفهم يسار.

كمال: ده حيبقى ظلم حقيقى لهؤلاء الشباب.. أنا بقالى ٤٠ سنة وسط اليسار وأكاد أعرفهم كلهم ودول شباب عادى.

وفى فجر اليوم التالى عندما جلس كمال أمام وكيل النيابة هَمَّ باختصار الطريق والاعتراف بأنه كان يتظاهر ضد النظام ويندد بوحشيته... أسكته وكيل النيابة بإشارة من يده وهو يقول بأنه لن يكتب حرفًا وراءه... ولما اعترض كمال بأنه مستعد لدفع ثمن تظاهره...

قال له وكيل النيابة بابتسامة: يا أستاذ كمال إنتوا عاملين ثورة جميلة وادينا فرصة نشترك معاكم فى هذه الثورة.. واحنا قررنا كوكلاء نيابة الإفراج عن كل المتهمين اليوم مساهمة منا فى حب مصر.

كتب وكيل النيابة ما يبرئ كمال والجميع من التهم وأفرج عنهم ليعودوا للمشاركة فى الثورة.

قال لى كمال كان هذا يوم ٢٨ يناير ولحظتها تأكدت من نجاح الثورة... وعندما سألته عن شعوره عند عودته للتحرير.. ألم تنتبك لحظة شجن واحدة لأن

الهتافات هذه المرة كانت مغايرة.. لم يبدعها كمال وأبدعها الجمع العظيم.. قال لى بابتسامة ودود: بالعكس كنت سعيد جدا لأن الشباب أخذ روح الهتاف وجوهره ثم أبدع شعاره الخاص.. ووجود ملايين البشر وظهور قيادات جديدة من الشباب أزاح بعض العبء عنى... دمت لنا يا كمال وسلمت خطواتك.

أحمـــد لطفـــى

عندما عاد عم أحمد لطفى من مقر جريدته "الأهرام إبدو" إلى بيته، كانت الساعة الثانية ظهراً، وكان اليوم هو يوم ٢٥ يناير، والميدان شبه محاصر بالجنود من مداخله كافة، وكانت أعداد المتظاهرين ما زالت قليلة.. كانت حركة عم أحمد بطيئة وهو يصعد درجات السلم القليلة حتى باب شقته الكبيرة، فى العمارة الضخمة المشرفة على التحرير، ومن شرفة غرفة مكتبه بالدور الأرضى بدأ يتابع ما يجرى، كانت الجنود تستعرض قوتها أمام المتظاهرين، ويتابعهم مدير أمن العاصمة وهو جالس على كرسيه، وبجواره يجلس رئيس تحرير جريدة معارضة يتأمل المتظاهرين بابتسامة، وسرعان ما توالت الأحداث، وامتلأ الميدان بأصوات الاشتباكات، وقنابل الدخان والقنابل المسيلة للدموع، التى طاردت عم أحمد فى كل أرجاء الشقة ذات الغرف السبع.. وكلما أوصد باب غرفة عليه، كانت الغازات تتسلل من شقوق الشيش وثقوب المزاليج وعقب الباب، وقد أجهدت هذه الغازات رئته العليلة، فبدأ يسعل بشدة، وسالت دموع عينيه.

ثم قرر قراراً جريئًا بإغلاق كل منافذ الشقة، والذهاب إلى إحدى بناته المتزوجات ليبيت عندها هذه الليلة التى لا تبشر بخير.. وكان هذا القرار قراراً خاطئًا جدا، فرغم أن عم أحمد يسكن بهذا المكان المتميز منذ أكثر من ستين عامًا، وشهد أغلب ما مرّ على هذا الميدان التاريخى من أحداث، لكن هذه المرة خانه التوقيت، فبمجرد خروجه من مدخل البيت إلى الميدان، وجد المعارك محتدمة وجنود الأمن المركزى يطاردون الناس بحماس غبى ويضربونهم بقسوة ووحشية، ولم يستطع أن يلمح ممرا آمنًا يسمح له بالخروج من الميدان، تراجع عم أحمد كل المسافة القليلة التى مشاها من بهو بيته،

وارتكن منكمشا إلى جدار الممر الطويل المؤدى إلى بيته، بنيته النحيلة وسنه المتقدمة لم يحميانه من التدافع المجنون للجماهير الباحثة عن منفذ نجاة، كاد يقع من تيار هوائهم الذى يمر به وهم يجرون بسرعات هائلة، ويرونه بالكاد فيتجنبون الاصطدام به، والكمامة الطبية التى وضعها على أنفه وحرص على النزول بها، لم تستطع منع الرائحة النفاذة كلها وسمحت لبعضها بالتسرب إليه فهيجت صدره، والغاز أيضًا كان يسقط على زجاج نظارته من الداخل ويرتد إلى عينيه فيزيده ألمًا.

أدرك عم أحمد فى تلك اللحظات معنى أن لا تفكر فى أى غد أو مستقبل، وأن تنتظر، فقط تنتظر، ما فطرنا عليه منذ ميلادنا، الغياب الأبدى، لكن عضلات قوية رأفت به، وحملته بسرعة إلى داخل الممر، دفن عم أحمد رأسه فى صدر حامله، بعدما أشار إلى بهو بيته، دخل به الرجل البهو وصعد به الدرج، اطمأن عم أحمد عندما لمح باب شقته، أنزله الرجل وربت كتفه وهم بالمغادرة، أمسك أحمد بيده وهو يفتح الباب وطلب منه الدخول، وانتبه عندما وجد خلفه بعض الهاربين من الاشتباك، كانوا يصعدون مثله على نفس الدرج، وكانوا ينظرون إليه بعيون متوسلة كأنهم ينتظرون دعوته، ورغم أن الخوف كان يملؤهم فإن الخجل أيضًا تمكن منهم، فهم فى وضع الاستعداد للصعود حتى أعلى البناية، هربًا من مصير مفجع، كانوا رجالاً وصبية وسيدات، بصعوبة فتح لهم عم أحمد الباب على مصراعيه، فدخلوا وأغلقوه خلفهم، جلسوا منكمشين فى الصالة الكبيرة، وهو غير قادر حتى على دعوتهم للتحرك بحرية فى الشقة، غير قادر حتى على الإشارة إلى مكان الحمام والمطبخ لمن أراد أن يشرب شيئًا باردًا أو ساخنًا.

لكن الرجل الذى كان بمثابة ملاكه الحارس منذ أن التقطه من الميدان، مازال يربت ظهره ويمسح بمنديل ورقى عرقه، هذا الرجل هو الذى بادر بدعوة الجميع للتجول بالشقة كأنها شقتهم، وأمّن عم أحمد على كلامه بمجرد إيماءة، وتحركت أم مع طفلتها التى كانت قد نامت من عنف البكاء متجهة نحو الحمام الذى لمحت بابه مواربًا، وقام الرجل ثم انحنى ووضع كفيه تحت إبطى عم أحمد ليساعده على النهوض، واستجاب له عم أحمد وهو يومئ بوهن تجاه غرفة نومه، غسل له الرجل وجهه ورأسه ومسحهما بعناية ممرض محترف، وانتظره عم أحمد خارج الحمام قليلاً حتى اغتسل هو الآخر،

ثم همس له أحمد وهما خارجان بأن يقدم للموجودين بعض الطعام والمشروبات، فبعضهم ظل لابدًا بكرسيه ومحرجًا من التوغل في الشقة.

كان صوت قنابل الغاز والطلقات مازال مسموعًا، لكن دقات حادة على خشب الباب أزعجت الجميع، هم الرجل بالاتجاه نحو الباب لكن عم أحمد ضغط على يده، فهم الرجل أن من الأفضل أن يفتح عم أحمد الباب بنفسه، أمسك بيد عم أحمد واتجه إلى الباب، كان نبض اليد سريعًا وباطن الكف يتعرق، عندما فتح الرجل شراعة الباب ليتعرف عم أحمد على القادم، ظهر وجه شاحب لجندى أمن مركزى، زاد توتر عم أحمد والرجل يفتح الباب بحذر ويتراجع ليقف خلفه، حاجبًا بجسده الضخم رؤية ما بداخل الشقة، كان الجندى يتكلم بصوت خفيض وبنبرات مهتزة، ويده ممسكة بفتاة نحيلة تبدو على وشك الدخول فى غيبوبة قصيرة، بدا صوت الجندى وكأنه يتوسل وهو يدفع برفق الفتاة تجاه عم أحمد ويقول: والنبى يا عم تدخل البنت دى عندك... وتحافظ عليها كأنها بنتك... الغاز كان حيموتها، أخذ الرجل البنت إلى الداخل وعم أحمد ظل يتابع الجندى وهو ينزل الدرج، تلقى عم أحمد نظرة امتنان جميلة من الجندى قبل أن يختفى جسده ثم وجهه، ولما استدار إلى غرف شقته وصالتها، كانت سيدة من الموجودين قد غسلت وجه البنت بالبيبسى، وأخرى تدعك جبينها وتحاول أن تسقيها شايًا دافئًا.

وكان الرجل قد انتبه إلى عم أحمد فهرع يساعده، تناول عم أحمد دواءه ورقد على سريره فتركه الرجل ينام بعد أن أحكم تغطيته وخرج إلى الصالة، كانت الأصوات قد بدت تخفت، وثمة قطرات مياه على زجاج الغرفة تنتشر ببطء، ابتسم عم أحمد فى رقدته وأحس بأن الله فى جانب المتظاهرين، لأن نزول المطر فى تلك اللحظات سيبدد الدخان، وبدأ بالفعل لا يحس بتأثيره، أو هكذا خيل إليه، قد تكون مرت ساعة أو ساعتان أو ثلاث، وصحا عم أحمد على لمسات الكف الضخمة التى تربت كتفه، أخبره الرجل بأن الأمور قد هدأت وأن الموجودين يرغبون فى شكره والرحيل، طلب عم أحمد من الرجل أن يتقبل شكرهم نيابة عنه، وأن يحرص على خروجهم فرادى حتى لا يحتك بهم رجال الأمن، كانت هناك أصوات خافتة تأتى إليه – وهو يدخل حمام غرفته – من الصالة، ويبدو أنها أصوات الخارجين.

وكان عم أحمد قد قرر أيضًا أن ينزل من شقته ويذهب ليبيت عند ابنته وأولادها في الدقى، فربما تزيد سخونة الأحداث ليلاً ولا يجد أحداً بجواره يعتنى به، ولما سمع صوت باب شقته وهو يغلق أثناء ارتدائه قميصه، وضع أدويته في حقيبته الصغيرة التي يعلقها على كتفه وهم بالخروج من غرفته، لكنه فوجئ بنفس الرجل مازال موجوداً بالمكان وينظر إليه بدهشة وهو يسأله بصوت رقيق: إنت خارج يا عم أحمد في الظروف دى؟ أخبره عم أحمد بصوته الخفيض عن السبب، تعاون معه الرجل في إغلاق جميع منافذ الشقة والتأمين على مصادر المياه والغاز والكهرباء، وعلى إغلاق بابها بقفليه الداخلي والخارجي، وساعده في الخروج الآمن من المنزل، وصاحبه بين رجال الأمن المركزي المدججين بالسلاح والمستنفرين حتى أوقف له "تاكسى"، مد له عم أحمد يده الواهنة من نافذة السيارة ليودعه، لكن الرجل فاجأه بتقبيلها بسرعة وغادر المكان مهرولاً، ولم يره أحمد بعدها إطلاقًا.

ثم تصاعدت الأحداث بعدها وأصبحت الليلة.. ليلتين ثم لياليَ، وعم أحمد ذو الـ٦٧ عامًا من العمر على كثرة ما شاهد من أحداث في ميدان التحرير، كان قلقًا ومنزعجًا حتى وهو بين ابنته وأحفاده بعيداً جدا عن الميدان.. حتى تلقى مكالمة من أحد الجيران بأن الثوار احتلوا محل الحقائب أسفل شرفته ودخلوا الشقة ثم فتحوا الباب وأقاموا بها..

في الصباح الباكر اتصل عم أحمد بأحد أصدقائه وذهبوا لتفقد الشقة.. كانت فعلاً محتلة من الثوار.. يفترشون أرضيات الغرف، وبعضهم ينام في الممرات، وحمام الشقة الكبير جعلوه دورة مياه عمومية للسيدات المقيمات بالميدان.. كان عم أحمد غاضباً وصديقه يتأهب للشجار.. لكن قابلته وجوه باسمة وديعة.. اعتذرت له بلطف.. واستأذنوه دقائق جمع حقائبهم، وانهمك بعضهم في كنس الشقة وتنظيفها بهمة كبيرة..

تفقد عم أحمد الشقة بأكملها.. "دواليبها" وجدرانها.. أسرتها وكراسيها.. لوحاته المعلقة.. ألبومات صوره.. تحفه الصغيرة المزينة للأركان.. فلم يجد شيئًا مفقوداً

أو مهشماً.. وعند تفقده لدرج مكتبه وجد نقوده كما تركها وبنفس لفتها وكانت أكثر من ثلاثة آلاف جنيه، طلب منهم عم أحمد أن يبقوا فى الشقة ونزل هو وصديقه للتسوق.. عادا بكميات كبيرة من الأطعمة والعصائر ملأوا بها الثلاجة الكبيرة و"الديب فريزر" والثلاجة الصغيرة التى بغرفة نومه.

أقام معهم عم أحمد طيلة الأيام العشرة العصيبة التالية.. يشاركهم طعامهم وشربهم وينام بغرفته التى أصروا على أن لا يشاركه فيها أحد منهم.. عرفوا مواعيد دوائه ونومه وذهابه إلى عمله واهتموا بتنبيهه إليها، أحس بينهم بطمأنينة وأمن لم يحس بهما إطلاقاً وهو بعيد عن الميدان، وعقب تنحى مبارك استيقظ فوجد الشقة نظيفة ومرتبة، وورقة بيضاء كبيرة معلقة لشكره ومدون بها أسماؤهم الأولى.. ولم يجد أحداً منهم فى الشقة، لكن أرواحهم جميعاً كانت تهيمن على المكان.

الـــزيــــــارة

فى ليلة شتوية بردها قارس جئتكم، غمرتنى أضواء الغرفة وأزعجنى صخب الاستقبال فبكيت، وعجبت منكم فكلما خرج صوتى أليمًا باكيًا، جاذبًا معه أحشائى، علا ضحككم وزاد سروركم،

أنا الذى ما مستنى يد من قبل، تلقفتنى الأيدى الخشنة والناعمة، النحيلة والغليظة، ومست وجهى شفاه عديدة، واحتضنتنى أجساد كثيرة، وظللتنى الروائح المتباينة، ثم دثرتمونى بلفائف وأقطان.

وما إن لامستنى أمى واحتضنتنى قليلاً، وأسكن قلبى دفء صدرها، وبعد أن هدأت ولزمت الصمت، عز عليكم أن أبقى فى كنفها بعض الوقت، فجأة انتشلنى الرجل صاحب المعطف الأبيض، الذى كانت يده أول شىء تعرفت عليه فى دنياكم هذه، وأودعنى عنبراً زجاجيا بين أقرانى القادمين الجدد، بينما من الخارج ظلوا ينظرون إلينا عبر الزجاج وهم يشيرون لنا بأياديهم.

كنت قادراً على معرفة مكان أهلى بينهم، لكنى كنت غير قادر على التلفت والإشارة، كان جسدى الصغير عصيا على طاعتى وتنفيذ إرادتى، فعدت للبكاء، وتحركت شهية رفاقى للنواح تضامنًا معى، وكونوا ما يشبه الجوقة الموسيقية التى يجيد كورالها ترديد نغمات البكاء بمختلف درجته، وحين زاد صخبنا وضجيجنا بعد أن غادرنا الأهل ومن بصحبتهم من جيران وأصدقاء، أطفأوا الأنوار حولنا فخفتت أصواتنا شيئًا فشيئًا، بعد أن خدعت وأحسست بالأمن لما ظننا أننا عدنا إلى عالمنا الذى جئنا منه.

تكلمنا بعضنا مع بعض، ليس بلغتكم تلك التى كانت تدوى فى آذاننا مثل صوت الطبل، ولا بالصوت العالى الذى تجيدون إصداره، ولا بالإشارات التى تصحب كلامكم، بل بلغتنا نحن التى تعتمد على الحس ودقات القلب، كان منا من هو مبهور بهذا العالم الذى ولجناه فجأة، وكان منا المتفائل، وكان منا المتشائم، وكان منا الخائف والمذعور، وكنت متحيراً ومتهيباً، أحياناً أسعد بما أنا عليه فى طريقى للدخول إليه، وأحيانا أخرى تصبح غاية آمالى أن أعود إلى ما كنت عليه، وكان منا من يظن أننا سنبقى بهذا المكان زمناً طويلاً، وأنهم سيتركوننا بلا متابعة ولا رعاية لكن سرعان ما عاد الضوء يغمرنا.

وجاءت الصحبة نفسها تزورنا وترقبنا، وأحيانا تمر علينا وتتلمسنا، ثم بدأت أحس بجسدى ومتاعبه، وأتعرف على أعضائى بدون مسمياتها، وعندما زهقت من تلك الحضّانة السخيفة، صرفوا أغلب رفاقى واستبقونى مع قلة منهم، ثم غمرونى بضوء أبيض مستفز زمناً طويلاً، وعاودنى الرجل بمعطفه الأبيض... حملنى هذه المرة بمودة أنستنى عنف القبضة التى جذبنى بها فى بداية تعارفنا، ثم نظر إلى عينى وابتسم وربت ظهرى برفق، لكنى لم أكف عن البكاء إلا عندما تلقفنى حضن أمى.

فى الشارع لأول مرة عندما واجهت ضجيجه ودخانه، تمنيت لو صادفت رفاقى المتفائلين وعدت أسألهم عن رأيهم فى هذا العالم الجديد، لكن الحلول البديلة هدأتنى بعض الوقت، حضن أمى وحنانها.. رقة والدى وعطفه واهتمامه.. فرحة كل من رآنى واحتضننى وقبلنى من الجيران والأقارب.

وحين مر الأسبوع الأول لوجودى بينكم، ملأتم مكانى الجديد وجوداً حميميا، وكنت أستعيد صوركم فى ذهنى وأحاول التعرف عليكم وأنتم تحدّقون إلىّ، وبت أعرف أن من يمد يده ليحملنى، وتتخلى أمى عنى طوعًا لساعديه هو من أقاربى، وكنت أراوغهم وأحيرهم، فأحياناً كنت أقبل أن يحملونى، وأحياناً أخرى أجزع، وأدفعهم عنى بالبكاء، وبينما أنا مشغول بالأضواء الملونة والبالونات الضخمة وعدو الأطفال العمالقة من حولى، باغتنى صوت دق الهون والطقوس التى ابتدعتموها لاستقبالنا، فبكيت ولم أتوقف... ونمت مهموماً.

أيام كثيرة مرت بعد تلك الليلة، وأنتم موزعون الهوى بينى وبين ذلك الجهاز الذى يبث صوراً متلاحقة، حاولت أن أفهم كيف تختزلون هذه الدنيا الواسعة فى هذا الجهاز، العالم الضخم الذى لم أتعرف عليه بعد فى هذا الجهاز الصغير... رغم أن حدسى ينبئنى بأنه أكبر بكثير من عالمى الصغير، كيف تختزلونها فى هذا الجهاز الصغير؟ وتظلون تلاحقون صوره بلهفة وشوق، ويصبح شاغلكم الشاغل.

لقد تعرفت على العالم الكبير المدهش القاسى اليوم، كنت قد سعلت أمس، وسهر أبى وأمى بجوارى، ولمحتهما يدمعان فتوقفت عن البكاء، لكن السعال غلبنى، أنا اليوم فى الشارع للمرة الثانية، أسمع أصواتًا كثيرة لا أميز أغلبها، وأرى مئات من العلامات والشارات والوجوه والأعلام، وتخطف بصرى أضواء تهبط من السماء إلى الأرض، والسعال مازال يشتد، وأنا محتمٍ بحضن أمى، بينما وجه أبى يبتعد ويقترب كلما كثر الفر والكر، حتى هاجمتنى روائح فظيعة استطاعت النفاذ من كل مادثرتنى به أمى، لم يعد صوت السعال يخرج منى، وبدأت فى التباعد عن عالمكم، وبدأت أصواتكم تخفت وصوركم تتلاشى، وأنا أهرول عائدًا إلى عالمى... ثلاثون يومًا هى مدة وجودى بينكم تجعلنى محقا فى أن أقول لكم: كنت ضيفكم فلم تحسنوا استقبالى، عذرًا يا أبى ويا أمى هذا قدرى فلا تجزعا.. لعلى أخطأت التوقيت.

التـــوأمـــان

قبل صلاة الجمعة بساعة أو أكثر، هلَّ من آخر الممر ضباط ثلاثة بمعاطفهم السوداء وأجهزة الاستقبال والإرسال، الصبى المكلف بحمل المشروبات إلى الزبائن أسرع عائداً من نصف المسافة بالصنية الممتلئة بأكواب المشروبات وكنكات القهوة، ثم همس لمسئول المقهى الجالس خلف مكتبه الخشبى، نهض المسئول بسرعة وهرول فى اتجاههم مرحباً بهم وخلفه بعض العاملين ينتقون لهم أفضل الكراسى والمناضد.

حضرت أفضل شيشة بسرعة تسعى إلى أحدهم، ورص العامل على طاولتهم أكواب السحلب المغروس فيه أصابع الشيكولاتة والموز المقشور وتسبح فى سائله المكسرات، بعض الناس العاديين آثروا السلامة وأنهوا مشروبهم بعجالة وغادروا المكان، أما الشباب المنكبون على لافتاتهم يدونون بها شعاراتهم أكملوا ما هم شارعون فيه دونما التفات، ولم يهتم الضباط حتى بالنظر إليهم، كأنما هناك هدنة بينهم والأطراف كلها مجمعة عليها.

وفى موعدها بالضبط، حضرت أم يوسف القبطية الشابة التى لا يتجاوز عمرها الأربعين عامًا، جلست فى مقعدها المفضل فى مقدمة المقهى، خرج العامل من وراء النصبة ليرحب بها بالتزامن مع مسئول المقهى، وحياها باقى العمال من مواقعهم المختلفة، كانوا يحبونها ويتعاطفون معها، فهى سيدة طيبة وخدوم ولا تكاد تغيب البسمة عن شفتيها، وكانت على غير ما تبدو عليه من نحافة شديدة، شخصيتها قوية صارمة، وقد ورثت عن زوجها ورشة الخراطة التى أفنى الزوج الراحل عمره فيها، ولم تفرط فيها بالبيع أو الشراء بل عملت فيها كالرجال وأدارتها كالمحترفين، مقر الورشة كان فى السبتية والإجازة الأسبوعية كانت يوم الأحد، وفى يوم الجمعة كانت تفتح الورشة بعد الصلاة، بعد أن تقضى صباحها فى هذا المقهى بالذات.

وقد لفت نظرى ذلك كثيراً ولم أتوصل إلى سبب معين له، كثيراً ما كنت أراها تترك مقعدها المفضل، وتدخل إلى عمق المقهى لتساعد عامل المقهى فى غسل الأكواب والكنكات، وهى تتبادل معه الأحاديث المختلفة التى يتخللها الاطمئنان على زوجته وأولاده الذين تعرف أسماءهم وأحوالهم بدقة، وفى العشرة الأواخر من شهر رمضان، كنت أراها منهمكة مع مسئول إدارة المقهى فى وزن السكر والبلح، وعد عبوات الزبيب والزيت والسمن، ثم وضعها فى أكياس بلاستيكية، تمهيداً لتوزيعها على فقراء الحى، كما هى عادة صاحب المقهى كل عام، كانت سخية ومعطاءة تمنح العمال هبات مالية يأخذونها منها بعد إلحاح كبير، ثم تغادرهم إلى ورشتها.

الضباط الذين أدهشتهم الحفاوة الكبيرة التى يسبغها العمال عليها، جعلتهم يحدقون بها قليلا ثم شيعوها بنظرات لامبالية، التفتوا بعدها إلى أجهزتهم وبدأوا يصدرون أوامرهم بصوت خفيض، واحتاج أحدهم أن يدخل إلى حمام المقهى لقضاء حاجته، فهرع مسئول المقهى يفتح له باب الحمام المخصوص الذى لا يفتح إلا لكبار الرواد.

أذن المؤذن للصلاة فغادر الضباط أماكنهم ورحلوا إلى مهامهم، واتجه بعض الشباب إلى المسجد وبقى البعض الآخر ممسكًا بلافتاته، وما زالت أم يوسف تتبادل الأحاديث الودية مع العمال والزبائن الدائمين الذين تعرفهم، ثم مر التوأمان اللذان يعملان بمحل التحف الذى يجاور المقهى، فى طريقهما إلى مكان الوضوء، وعمال المقهى يشاكسونهما ويشدونهما من ملابسهما، ويضحكون معهما.

عقب الصلاة امتلأت الشوارع بالمسيرات وتعامل معها الأمن بكل عنف، فر البعض فى اتجاهات شتى، وفتح مجدى صاحب مقهى ريش أبواب المقهى للناس حتى يحتموا بداخل المكان، دون تفرقة بين شباب مثقفين وناس عاديين، سافرات أو محجبات، وكان هذا حدثًا هاما يجب أن يذكر، فقد كان فى السابق يجلس فى مقدمة مقهاه يفرز وجوه الداخلين، ويمنع بعضهم من الدخول بحجج مختلفة، هذه المرة حركت القسوة التى يتعامل بها الجنود مع الثوار قلبه، أدخلهم المقهى وصرف لهم المياه مجانا وعالج بعضهم وأطعم البعض الآخر.

وحينما توالت قذائف قنابل الغاز المسيل للدموع، وأصبح الشارع يسبح فى سحابة من الدخان الأسود، أمر عماله بغلق المقهى من الداخل حماية للموجودين، ثم زادت الأجواء احتداماً بالخارج وأصبح الرعب يغالب الواقفين بالداخل والذين يكتظ بهم المكان، وتمكن الغاز من التسلل عبر سفل الباب، وبدأ بعض الموجودين بالداخل فى الشعور بالاختناق، والمدهش أن شخصين من الموجودين بالداخل تلبسهما الرعب المخيف، فمضيا يدفعان بغلظة الناس الذين فى طريقهما حتى ينفلتا إلى مقدمة المقهى، وعندما وصلا إلى الباب الموصود، لم يهتما بنظافة لبسهما المدنى الأنيق، وظلا يخبطان على الباب الصاج بجنون وهما يصيحان: افتحوا الباب.. حنموت.. احنا مش معاهم.. احنا مخبرين..، ولم يهتما بمخاطر كشف شخصيتهما، بقدر خوفهما من الموت خنقا بين سائر المواطنين العاديين، رفع لهما العامل الباب الصاج حتى خرجا وخرج معهما من ضاق بالمكان.

التوأمان اللذان تجاوز عمرهما الـ٧٠ عاماً ولا أحد يرعاهما أو يهتم بهما، غير صاحب محل التحف الذى ألحقهما بالعمل وسمح لهما بالمبيت داخل المحل، أخبرانى فيما بعد أنهما أغلقا باب المحل عليهما وناما كالمعتاد على الأريكة الصغيرة، التى تكاد تتسع لهما بالكاد، وكلما سمعا صوت طلقات الرصاص وهى تنهمر ليلاً كانا يحتضنان بعضهما، ويبكيان وهما يرتلان بعض آيات القرآن الكريم، أما القبطية المسالمة المكافحة أم يوسف فلم يكن حظها الطيب يصاحبها فى ذلك اليوم، فقد عاجلتها رصاصة غادرة أثناء هرولتها فى ميدان عبد المنعم رياض، بحثا عن مواصلة تقلها إلى ورشتها، الرصاصة أردتها شهيدة يوم ٢٨ من شهر يناير فى عصر الجمعة التى سميت فيما بعد بـ"جمعة الغضب" ولم يظهر اسمها حتى بين قوائم الشهداء.

المؤلف فى سطور

مكاوى سعيد

صدر له :

١- الركض وراء الضوء، مجموعة قصص. ١٩٨١، (دار النديم).

٢- فئران السفينة. رواية ١٩٩١، (ست طبعات)، (سعاد الصباح).

٣- حالة رومانسية. مجموعة قصص، ١٩٩٢، (نشر خاص).

٤- راكبة المقعد الخلفى، مجموعة قصص، ٢٠٠١، (هيئة الكتاب).

٥- تغريدة البجعة. رواية، ٢٠٠٧، (عشر طبعات)، (الدار للنشر والتوزيع).

٦- تغريدة البجعة. رواية، ٢٠٠٨، (طبعتان)، (دار الآداب - بيروت).

٧- سرى الصغير. مجموعة قصص، ٢٠٠٨، (كتاب الأخبار).

٨- ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا، قصص، ٢٠٠٩، (هيئة قصور الثقافة).

٩- مقتنيات وسط البلد كتاب عن الشخصيات والأماكن، ٢٠١٠، (دار الشروق).

الكتابة للأطفال:

١- فى مجلات علاء الدين وبلبل وقطر الندى وكتب الهلال للأولاد والبنات.

٢- روايات "عن صديقى فرتكوش".

٣- مسرحية "كنوز حضارات" للأطفال.

٤- رواية "عم رمضان النفايات" دار زهراء الشرق، ٢٠١٢.

الجوائز الأدبية والتكريمات العربية والدولية:

١- الجائزة الأولى للرواية - مسابقة د. سعاد الصباح للإبداع العربى عام ١٩٩١.

٢- القائمة القصيرة لجائزة بوكر الدولية للرواية العربية - عام ٢٠٠٧.

٣- جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية عام ٢٠٠٨.

٤- جائزة اتحاد الكتاب لأفضل مجموعة قصصية عام ٢٠٠٩.

٥- تكريم من نادى القضاء المصرى عن التميز الأدبى عام ٢٠٠٨.

٦- تكريم من ساقية الصاوى لأفضل كتاب لعام ٢٠٠٨.

٧- تكريم من مهرجان طيران الإمارات للآداب عام ٢٠٠٨.

٨- تكريم من معرض تونس الدولى للكتاب عام ٢٠٠٩.

٩- تكريم من مهرجان برلين الدولى للآداب عام ٢٠٠٩.



المجلس
الأعلى
للثقافة

كان عاجزًا تمامًا عن الفعل وليس أمامه إلا مصيران يتهاديان كأرجوحة صغيرة .. أن يمد يديه بسرعة ويخنقها مختتمًا حياته بالسجن ، أو تكون هى الأسرع وتفصل الرقبة .. هنا في الغرفة التي لم يدخلها رجل .. ولعلها كانت تقصد لم يخرج منها رجل أبدًا .. ووجد نفسه يبكي .. يُنهنه كالأطفال ويبكي ...، ثم ارتفع صوته بالبكاء مع إغماضة عينيه في صدرها وعادت إليه صورهم وهم مندهشون .. يحدِّقون .. وجسدها الثعباني .. والساحة الكبيرة الممتلئة والسيف إذ يشق الفضاء ثم يهبط فاصلاً الرأس عن الجسد والتهليل والجن والعفاريت.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صا

